الماضي الجميل

شعبان فرحي

« . . كثيراً ما أرجع بخيالي الى
الأيام الغابرة وقد غمرت ذكرى
للماضي الجميل . . طالما وددت لو
عدت الى ذاك الوقت . . طفلا
صغيراً يحيا في احضانهم . . »

الفصل الأول

« كان يوماً من أيام الربيع الباسم ..
وكان الوقت عصراً قاربت شمسه المغيب ؛
أذكره كلما استمعت إلى موسيقى « جرانادا »
وقد عزفتها احدى الحاضرات . . »

فى ذاك الوقت . . لما كنت أحيا فى الأوهام ؛ أرى الحياة أمامى فى ثوب وردى يبسم فى تفاؤل . . فى ذاك الوقت كنت طفلاً صغيراً . . وصغيراً ساذجا . .

وما زلت ذلك الصغير إلى أن بدأت المصائب تلقى حملها الثقيل على أسرتى الهادئة ؛ فتناولت يد القدر والدى وأمهلتنا وقتاً قصيراً لتعود وتختطف من بيننا والدتى وقد تركتنى وشقيقتى الصغيرة وحيدين ليس لنا من عائل إلا

خالة احتضنتنـــا وراحت تنفق علينا من مورد كفله لنا والدانا .

كانت خالتى أرملة شابة ، ورثت عن زوجها الكهل المال الوفير وأرضاً مترامية الأطراف فى الريف كنا نقضى فيها أكثر أيام الصيف ..

كانت أصغر سناً من والدتى ، نشأت مدللة محبة للبذخ والظهور .. ولا أدرى كيف قبلت ذلك الزواج الذى لم يعمر طويلا .. والعيش مع عجوز أذكر الآن أنه كان دائم المرض والسقم ، بخيلا ، مغلول اليد ، قلما كان يترك منزله أو حديقة البيت الواسعة .. وكثيراً ما ترامت إلى سمعى عن جوده وتقتيره شتى الأقاصيص .

لم أدر كيف ارتضته خالتي زوجاً لها بالرغم من حداثة سنها ، وكيف استطاعت أن تقاسمه أيامه الأخيرة ..

تلك التى لم تطل والتى قضاها ساكناً قابعاً فى عقر داره . .

وفى منزل خالتى مضت الأيام الأولى من حياتنا الجديدة فى تراخ لا نكاد نفرق بين يوم وآخر . . لا أنيس لنا إلا مربيـــة لخالتى . . وكانت سيدة عجوز .

كانت خالتى تحنو علينا وكان فى حبها لنا أكبر العزاء لفقدنا والدتنـــا . وعلى مر الأيام ألفنا جو البيت وسكونه القاسى . . وارتضينا بسرور أمومة خالتي وأصبحنـــا نناديها بلقب الأم . .

وقد يصعب علىّ أن أصف هنا ذلك البيت الكبير الذى ورثته خالتى عن زوجها قبل أن نشاركها الإقامة فيه فقد كنت صغيراً حينئذ ولم يبق فى خيـــالى منه إلا أنه كان كبيراً واسعاً ، قديم البناء ، حديقته شاسعة ذات أشجـــار عالية انتثرت فيها دون نظام أو ترتيب . . وكان البستانى

رجلا عجـــوزاً قليل الحركة ميـالاً إلى النوم . . لم يكن ليعبـأ بالعمـــل فى الحديقة أو الإشراف عليها فتركهـــا على حالهـا . .

لبثنا فى ذلك البيت وقتاً طـــويلا ولم يزل على حاله ثم جاء الصيف فقضيناه فى عزبة « البرج » ، وعند عودتنا تملكتنى الدهشة حين وقع نظرى للمرة الأولى على المنزل فقد استحـال قصراً فخماً جديد البنـاء أنيق الرياش ، نسقت حجـــراته فى ذوق سليم ، وتجلى البذخ فى كل خطوة من أبهـائه الكثيرة . وكم كان فرحى عظيماً عند ما فاجأتنى خالتى بحجرتى الجديدة وبشرفتهـا الـــكبيرة التى تطل على الحديقة وقد كان العمل فى تنسيقها ما زال قائما .

فى ذلك البيت الجـــديد بدأنا مرحلة أخرى من مراحل الحيـاة ، فقد بعث جوه الضـــاحك ومظهره الحديث المرح

والتفاؤل فى نفوسنا . . كانت حياة جديدة أشعرتنا بأننا قد طلقنا كل ما كان من ماضينا الراكد الحزين .

هناك أخذت خالتى تحيى الكثير من الحفلات الساهرة التى كانت تقيمها لمناسبة ولغير مناسبة ، فكان يؤم المنزل صديقاتها العديدات . . وهناك عرفت من فتياتهن الكثيرات . .

ومضى دور طفولتنا فى حياة هادئة ، كانت خالتى أثناءها نعم الأم الحنون . . كفلت لنا كل ما نرغب . . بل وأكثر مما كنا نرغب . .

° ° °

من الأيام ما يعلق ذكراها بالذهن دون أن يمحى . . ولو لم يكن ذاك اليوم عيد ميلاد شقيقتى ليلى الثامن عشر لما أثر ذلك فى انطباعه على لوحة خيالى . . فقد كان له أثر كبير فى ربيع حياتى . .

.. كان يوماً من أيام الربيع الباسم .. وكان الوقت عصراً قاربت شمسه المغيب ، أذكره كلما استمعت إلى موسيقى « جرانادا » وقد عزفتها إحدى الحاضرات على البيان ..

إن تلك القطعة تعود بى إلى ذكرى ذلك اليوم ، وقد يعقل أن يستعرض الانسان فى ذهنه لوحة رآها ولكن من العجب أننى أجد فى نفسى الآن القدرة على استنشاق عبير العطر الجميل الذى كان يملأ جو المكان .

كنت يومئذ فى الحادية والعشرين من عمرى .. أشرفت على نهاية دراستى فى كلية الحقوق .. وكان اليوم عيد ميلاد ليلى كما ذكرت .. غص المنزل بالكثيرات ولم أكن أرى منهن لا واحدة . عرفت اسمها .. نائلة .. كانت لا تكبر ليلى وربما كانت أصغر منها سناً .. فاتنة القسمات ، رشيقة القد ، يميزها عن الاخريات ذلك الطابع الذى عرفت به فتيات الشمال .

لم أكن قد رأيتها إلا فى تلك الأمسية . . ولم أكن قد قُدمت إليها بعـــد ، فجلست أرقبها فى صمت . . بعيداً عنها . . قريبـــاً منها ، فما كنت أطمع فى أكثر من الإعجاب بها ومراقبة حركاتها وسكناتها . .

لا أقول إننى أحببتها فى تلك اللحظة . . كنت معجباً بها وربما لم تكن هى وحدها موطن إعجابى دون الأخريات فقد كنت من أولئك الذين يضعفون أمام الكثيرات . . وقد آخذ على نفسى إظهـــار عاطفة قد لا تكون بالصادقة نحو بعضهن ، ولكنى كنت حينئذ شاباً كما قلت . .

أذكر أننى اعتقدت يوماً بحبى لفتاة كانت تتردد علينا مع أسرتها . أغرتنى هذه الفتاة بأن أشـــترى عربة ووعدتنى بالخروج معى يوماً . . وخرجنا وتنزهنـــا فى طريق هادىء . لا أدرى حقاً كيف وجدت فى نفسى الشجاعة حتى أطوقها

بذراعى وألهبها بقبلات خاطفة فى بله وسذاجة ، فقد كنت على الرغم من سنى أكثر ما أكون خجلاً أمام هذه التجربة . .

لم أندم على ما فعلت فقد نظرت إلىّ بعينين شاردتين ولم تنبس بكلمة وطال بيننا الصمت . . واتخذت مكانى من جديد ورحت أفكر ، ومرت برهة سكون قطعتها قائلة .

ـ سامر . . أتعلم أنك طفل صغير ؟ !

لم يخف علىّ ذلك اللون الساخر الذى اصطبغت به كلماتها فاندفعت لتوى أقبلها بشره فاستسلمت لى من جديد . . وفى طريق العودة أخذت أفكر لمَ كنت طفلاً وكيف لى أن أصبح رجلاً . . ولم تطل حيرتى ، فقد عرفت السبب .

عقدت العزم على أن أطلق شاربى . . فبدأ ينمو . . وتم نموه . . ثم قابلتها فنظرت إلىّ فى دهشة وأطلقت ضحكة ساخرة .

طال بى عبث تلك الفتاة وسخريتها . . ويكفى القـــارىء أن يتصور الصدمة التى واجهتنى عند ما قدمت إلىّ فى عيد ميلادى هديتها المتواضعة كما قالت . . فضضت غلافها فوجدت ألعوبة أطفال ! ! .

ما كدت أخلو لنفسى حتى اتجهت إلى المـــرآة فرأيت فى زهو أننى رجل حقاً . . ولكن لم يدم ذلك الحلم طويلا فقد حدقت النظـــر فى الشارب وابتسمت ساخراً وأنا أتمتم قائلا . .

ـ ولو ! !

ونمت وأنا أجمع شتات أفكارى محاولاً أن أوفق إلى ما يجب علىّ أن أفعله فى الغد حتى أثبت لهـا أننى ذلك الرجـل الذى كان طفلاً بالأمس . .

إن ذلك الحادث وغـــيره قد يمر على الإنسان دون أن

يعبأ به .. ولـــكننى كنت أولى مثل تلك الصدمات الـكـثير من اهتمامى .. أفكر فيما فعلت وما كان يجـــب علىّ أن أفعـــل .. ولو لم أكن أعير اهتمامى لأحداث اليوم لما تأثر خلق بالطابع الذى أُفرغت فيه وعُرفت به .. طالما أحسست أننى طفل صغير ، فكنت أحاول أن أظهر بمظهر الرجـــل الخشن ، ولـكن طبيعتى الهادئة كثيراً ما حالت دونى والنجـــاح فيما أرمى إليه فأبدو للناس كالممثل الذى يفشل فى أداء دوره فيكون نصيبه السخرية من الجمهور ..

كنت أعرف أننى هادىء الطبع وكان يجب علىّ أن أرتدى قناعاً من الجمـــود والصلابة فأجد أن ذلك القنـاع شفاف يكشف عن طبيعتى فى آخر الأمر ..

* * *

فى تلك الليـــلة التى رأيت فيهـا نائلة لم يكن ورائى من

الذكريات إلا أثقلها ؛ ولكنها كانت تمر سراعا . لم أكن ذلك الشخص الذى تتعلق به فتاة لوقت طويل . . ولا أدرى إن كان ما تشعر به نحوى هى خيبة الأمل التى تطلب معها الخلاص — وبسرعة — من علاقة كنت أرى أنها تنتهى فى الوقت الذى كان يجب أن تبدأ فيه .

جال بفكرى يوماً أن أقنع بالإعجاب الصامت بالمرأة التى قد أشعر نحوها بعاطفة . . أن أكتمها ذلك الاعجاب وأخفيه عنها . . كان ذلك العزم قد سبق رؤيتى لنائلة بمدة وكنت وقتذاك فى تلك النشوة التى يحس بها كل من يقدم على أمر جال يرى منه الحلو قبل المر . . رحت أرقبها كما قلت . . وأرقبها طوال الوقت إلى أن انتهى الحفل وخرج الجميع . . ومرت الأيام وتوالت الشهور إلى أن حانت تلك اللحظة التى قدمت فيها اليأس على الأمل . . ورحت أحاول نسيان

تلك الليلة السعيدة وذلك الوجه الجميل .

.. لم أكن من أولئك الذين يصمدون لحظة أمام وحدتهم .. كثيراً ما كنت أبحث عن واحدة ممن كانت لى بهن علاقات سابقة .. وكنت حريصاً ، لا أفصم عرى صداقة دون أن أترك هناك طريقاً للتقاء .. وطالما افترقت عن إحداهن فأجد الأخرى تنتظر .. وكثيراً ما أرجع لتلك الأخرى فلا أجد إلا صدا .. ولكن قد يحلو لاحداهن على الرغم من ذلك أن تبدأ معى من جديد حتى نصل إلى تلك النقطة التى كتب علينا أن نفترق فيها . هناك حيث افترقنا من قبل ..

ولا أدرى كيف قادنى التفكير يوماً إلى الرغبة فى الزواج فى مثل هذه الظروف وبين تلك الاحساسات والمشاعر التى غدت تنتابنى . فاتحت أختى ليلى فى ذلك فابتسمت

وسألتنى أيتهن أختار . . وفى الواقع كنت عاجزاً عن الاجابة فلم أكن أحسب لهذا السؤال حساباً ، فتركتها لأفكر .

سوف يدهش القارىء لو علم أننى دخلت حجرتى لا لأفكر كما قلت بل أتيت بورقة قسمتها أجزاء وكتبت عليها أسماء من أعرف من الفتيات ، وخلطت الأوراق بعضها ببعض ثم أغمضت عينى وأمسكت بواحدة . . كانت باسم نائلة . . نمت وقد راح تفكيرى عندها . . هناك حيث لا تعلم . .

. . إستيقظت من نومى على صوت ليلى وقد جلست على طرف السرير وسألتنى .

ـ هل فكرت ؟

فرددت لتوى .

ـ نائلة .

ـ نائلة ؟ ! ياسلام ! . . أتحبها ؟ !

ـ نعم يا ليلى .

سكتت برهة ثم شردت نظرتها والتفتت إلىّ أخيراً وقالت وقد بدا الجد على قسمات وجهها .

ـ ولكن لمَ لا تختار غيرها ؟ . . هناك كثيرات . . وجميلات .

نظرت إليها فى دهشة وخرجت متثاقلاً وأنا أعزو كلماتها الأخيرة إلى حالة من الغيرة قد استولت عليها . . وزاد عجبى وحاولت عبثاً أن أجد دافعاً آخر يجعلها تصرفنى عن رغبتى . .

فى ذلك اليوم لم يغرب وجه نائلة عن خيالى . . كنت أراها أينما كنت . . بشعرها الأشقر وقدها الأهيف .

الفصل الثاني

« . . ولا أحاول أن أدعى الآن ذلك الكبرياء الذى اعتقدت فيه مرة والذى كان يحول دونى وقبول تلك الخطوة التى تقدمتها لحوى ، فلم يكن لى من هم فى تلك اللحظة الا أن تكون لى . . ولى وحدى . . »

كنا نتأهب للذهاب إلى العزبة فى الأيام القليلة التالية .

وذات يوم أخبرتنى ليلى أن نائلة تكن الحب لآخر .. لم أعرف ما إذا كانت تلك المفاجأة قد سببت لي شيئاً من الأحزان أم كانت بالعكس مدعاة لكرهى لها وتصميمى

على عدم التفكير فيها فقد اتضح لى حينئذ أننى لم أحب تلك الفتاة فى يوم من الأيام . . ولم يكن شيئاً عسيراً أن أعمل على محو ذكراها من مخيلتى .

* * *

كانت من عادة خالتى أن تدعو بعض صديقاتها لمشاركتنا المصيف فى العزبة ؛ وقد وقع اختيارها فى ذاك العام على رجاء هانم وهى سيدة مطلقة لا يعدو سنها الخامسة والعشرين رشيقة ؛ نحيلة القد فى اعتدال ؛ ذات شعر أسود فاحم كثيراً ما كان ينقلب إلى اللون الأشقر . .

سمعت الكثير عنها ، وطالما لاكت ألسن صديقاتها بمغامراتها وقد بدأتها حين كانت فتاة ، وتمادت فى عبثها أثناء الزواج ، ولم تنقطع عنه بعد الطلاق . .

كانت رجاء مولعة بلعب « الكونكان » ؛ وكثيراً ما أمضت

سهراتها فى منزلنا وقد تملكتها حمى اللعب دون ملل أو سأم. لم يكن وجودها يثير بيننا شيئاً من اهتمامى فقد كنت أعلم أنها على صلة بطبيب شاب سافرت معه مرة إلى أوروبا لقضاء الصيف .

لم تأت رجاء وحدها إلى العزبة فقد اصطحبها شاب قدمته لنا على أنه خطيبها ، ولكن تعاقبت الأيام على وصولها ولم أر لحظة أنه يعاملها بأكثر من معاملته لأخت أو لاحدى الغريبات عنه ، وهنا بدأت أتساءل ، وراحت ليلى فى صمت حزين ، وعبثاً حاولت أن أستدرجها إلى الافضاء إلىّ عمن يكون ذلك الشخص .

دخلت حجرتها ذات مساء فوجدتها وقد ارتمت على سريرها تبكى فى سكون ولم أستطع أن أعرف الدافع لذلك الانقلاب . . وفى الصباح رجتنى أن نعجل بالرحيل إلى أوروبا

لقضاء الصيف . . وراقت الفكرة لخالتى وكانت دهشتى عظيمة عند ما أبدت رجاء رغبتها فى أن تكون معنا ، فرحنا نستعد وقلبى يحدثنى عن حادث جلل قريب الوقوع .

* * *

أبحرت بنا الباخرة وتركنا على الميناء خالتى وعزت بك خطيب رجاء الذى رجانى أن أشملها برعايتى . إبتعدنا عن الأرض وأنا فى عجب من أمره . .

. . إن كان هو خطيبها فلمَ تركها ترحل وحدها ؟ ! ومعى أنا الرجل الذى لا أصغر عنه سناً بكثير ! . أهو يعاملنى كما عاملنى الكثيرون والكثيرات كطفل صغير ساذج ؟ . . وما غرضه من ذلك ؟

دارت كل هذه الأسئلة بخلدى ورجعت إلى الوراء أياما قليلة أستعرض حوادثها فخرجت بنتيجة واضحة . . أن

عزت لا يمكن أن يكون خطيباً لرجاء .. هـــو صديق لخالتى ، ما فى ذلك شك .

كان هـــذا التفسير الذى وصلت إليه كافياً لأصمم على فعل شىء.. نمت وأنا أفكر كيف أبدأه ، وكيف أسير فيه .. قمت فى الصباح الباكر والمسافرون كل فى « قمرته » وجلست على المقعد الـــكبير فى ممر الباخرة الضيق الطويل أرقب البحر والأفق البعيد ، ولا أدرى لمَ راح جسمى يرتعش ويرتجف بشدة ، فقمت تاركاً العنـــان لقدمى وأنا لا أدرى إلى أين .. سرت وسرت حتى وجدت نفسى أمام « قمـــرة » رجاء أطرق بابها .. مضت لحظات ثم سمعت صوتها وقد أمهلتنى برهة ففتحت الباب دون أن أعبأ بها فوجدتها ترتدى « الروب دى شامبر » الحريرى فوق غلالتها الرقيقة . إتجهت نحوها وأمسكت بيدها واندفعت قائلا .

— رجاء.. يجب أن تعرفى الآن.. أنى أحبك.

فبهتت وحدقت النظر فى وقالت فى دهشة.

— أنت مجنون يا سامر؟ ماذا حدث؟

— لا شىء.. ولـــكن يجب أن تستمعى إلىّ.. يجب.

— سامر.. أرجوك أن تخرج.. أرجوك.

— لن أخرج قبل أن أعرف ردك.

— لا تكن طفلا.. أخرج وإلا ناديت عاليا.

لم تجد منى إلا إصراراً وعناداً فأمسكت بيـــدى وقالت فى هدوء..

— سامر.. أنت متأثر بشىء.. ولكنك كنت تستطيع أن تحادثنى فى هذا الموضوع فى فرصة أخرى.. هل يصح أن تدخل دون إذنى؟. هدىء من روعك وانتظـــرنى فى الخارج.. سوف أخرج حالا.. أعدك..

ـ لا بأس . ولـــكن هل لى أن أعرف لمَ هـذا التغير المفاجىء فى لهجتك ؟

فابتسمت وقد أخـــذت بذراعى ثم قالت وهى تسير بى نحو الباب .

ـ لا تكن مجنـوناً يا سامر . إننى أكلمك بصراحـــة ولكن أترك لى الفرصة على الأقل لأرتدى ملابسى .

ـ ما دام الأمر كذلك فسأنتظرك .

إنقضت نصف ساعة وأنا أرقب فى لهفـة حضور رجاء . لقد عرفت حينئذ إلى أى مدى وصلت جرأتى فى تمثيـــل دورى . . لم أكن جريئا . . بل فى الواقع طالما كنت أشعر بالجبن والخجل . . وقد يكون ذلك الخجل . . والخجل الشديد هو الذى دفعنى دفعاً لتلك المغامرة .

كان شغـــلى الشاغل وقد استعدت هدوئى أن أعرف

ما إذا كان عزت خطيب رجاء حقا . . كنت أود أن أعرف لو كانت طبيعتها الحقة تدفعها لقبول اعترافى وارتضائى صديقاً كأولئك الذين سبقوا عزت .

كانت تلك الخطـــة جريئة . . وبدا لى أنهـــا فاشلة فقد صدتنى رجاء . . ولكن هل هى قد صدتنى حقاً ؟

وفجأة رأيتها وأنا فى بحر تأملاتى المتلاحقة . . أخذت تقترب نحوى وقد ارتدت « بنطلونها » الرمادى ، وبعد لحظة رأيت ليـــلى فى إثرها وجلسنا ثلاثتنا ورحنـــا فى صمت طويل ..

لقد ظهر لى بوضوح أنها طلبت إلى ليلى أن ترافقهـــا . . ولعلها قد أخبرتها بما حدث . .

° ° °

لم أعجب إذ رأيت نفسى وقد أخذت برجاء شيئاً فشيئا .

كان حديثها معى عادياً لا يشف عما حـــدث بيننا ، فرحت أرقبهـا فى دهشة لتجاهلها ما حدث فى الصباح .

وفى ذلك اليوم استطعت أن أنفرد بها لحظـــة بعد الغداء فقالت لى وقد رأت منى الرغبة فى الـكلام .

ــ أنا لا ألومك يا سامر إذ كنت تشعر بعاطفة نحـوى ، ولـكن تروى قليلاً فانا أكبر منك سنـــاً ، ولا تنسى أنى خطيبة شخص أحبه ويحبنى .

فاندفعت قائلا .

ــ كذب .

فقالت لتوها ببرود وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة ساخرة .

ــ هدىء من روعك يا سامر . . سواء أكنت مخطوبة أم لا فلي الحق فى أن أعرف من شئت . ليس لك أن تتحكم فى عاطفة غيرك .

سكت وقد شق عليّ الكلام ، ومر اليوم بطيئاً فى ملل . لقد أحسست بفتور من ناحيـــة رجاء وأخذ يشتد حتى تمنيت لو لم أكن قد قلت لها شيئا . .

شعرت بلهجتها معى وقد اعترتهـــا سخرية لاذعة كنت أصمد أمامها وأنا أحاول أن أحتمل تلك الكلمات التى كانت تلقيها عليّ وأفهم من وراثها غير ما تظهر . . وطال ذلك الاتجاه الذى اتخذته نحوى ولبث طوال أيام الرحـــلة حتى وصلنـا إلى باريس .

لست أنسى ليلتنا الأولى فى مدينـــة النور . . هناك حيث أمضينا سهرتنا فى « الكوبول » ملتقى عشاق مونبـــارناس . ذهبنا نتعشى ونقضى ما بقى لنا من وقت فى المرقص الفخم . . لقد أخذت بروعة المكان ، ورحت فى حلم بديع وأنا أستمع إلى موسيقى التانجو الهادئة ، ثم قمت مع رجاء نجول مع الراقصين.

كانت قد أفرطت فى الشراب ، فضت تنظر إلىّ بعينين حالمتين لم يخف علىّ ما كانتا تطويانه من إحساس دفين كشفت عنه تلك النشوة التى بعثت فى كيانها . . لم أغتبط لهذا التحول المفاجىء فما كنت أولى أهتمامى لنظرة منهما فى تلك اللحظة قد أفسرها لصالحى أو ربما كنت أعتبرها نصراً كافياً لمحاولاتى الكثيرة .

ولعل رغبتى فى الجمود أمامها وقد تركت عنانها لطبيعتها الصاخبة . . لعل ذلك الجمود قد جعلنى أنسى أننى أطوق بذراعى تلك التى جربت وراءها أياماً مضت . .

. . لم أستمر طويلا فى سكونى فقد انتهى الأمر بأن أضعف أمام رجاء وقد فتنت بها فى تلك الليلة ، بعد أن رأيتها ساحرة فى ذلك الاطار الضاحك المرح . . كان من الصعب علىّ أن أبقى بارداً أتظاهر بالجفاء نحوها ، ولا أحاول

أن أدعى الآن ذلك الكبرياء الذى اعتقدت فيه مرة والذى كان يحول دونى وقبول تلك الخطوة التى تقدمتهـــا نحوى ، فلم يكن لى من هم فى تلك اللحظـــة إلا أن تكون لى . . ولى وحدى . .

إن من يعرف ليالى باريس يذكر تلك الحـــانات الصغيرة الصاخبة التى تنتشر فى أحياء « الشاتيليه » و « الهـال » يؤمها الساهرون بعد قضاء ليلتهم فى المراقص أو دور اللهـــو ليتنـــاولوا طبق حساء البصل التقليدى . . هنـاك انتهت بنا مرحلة قطعنـاها مشياً على الأقدام فى الطرقات الساكنة فى ذلك الوقت المبكر من النهار . جلسنـــا ثلاثتنـا رجاء وليلى وأنا . . ولم تكن ليلى تظهر لنا ما يشعرنا بوجودها فقد كانت صامتة بعيدة عنا . . وربما قد شعرت بما كان يجول بخاطرى حينذاك . . ولعلها لم تكن ترى فى رجاء أكثر مما

رأته فى غيرها من صديقاتى . . تناولت يد رجاء واقتربت منها فلم تزد على أن أسندت رأسها إلى صدرى . . ورحنا فى حلم صامت جميل . . رأتنا ليلى فابتسمت وابتسمت بدورى . .

فى تلك اللحظة بدا لى من بين طيات الماضى طيف وددت لو كان نصيبه النسيان . رحت أتساءل من جديد ، هل تكون رجاء خطيبة عزت ؟ . . وبذلك السؤال تغير اتجاهى فجأة فقد بقى لى أن أعرف ما إذا كان هو حقاً خطيبها أم هو صديق لخالتى . .

ولكن . . هل أكون قد أحببت رجاء ؟

إننى أجد فى نفسى عيباً كثيراً ما ضايقنى . . أن أعتقد فيما أريد ، وأتغاضى عما لا أريد . . أتناسى فأنسى ما قد يسبب لى إزعاجاً . . وأترك نفسى تسرح طليقة حرة نحو أمل قد يكون سراباً . .

لقد رحت أتصور أنى حقاً أحب رجاء . .

إنتهت السهرة وعـــدنا إلى حيث نزلنا فى فندق « ريچينا » وتمددت فى فراشى أفكر ، وأقدر نصر اليوم إلى أن أنت ليـــلى وجلست بجوارى كعادتها وهمست إلىّ فى ابتسام .

ــ ألا تجد معى أن رجاء ظريفة ؟

فأجبت فى خبث .

ــ نعم . . ولكن للأسف .

ــ لا . . لا تحاول أن تنقب عن عيب فيها .

ــ مخطوبة .

فشردت نظرتهـــا وزالت الابتسامة عن شفتيها وسكتت عن الـــكلام ثم أدارت وجهها وقامت إلى مخدعها .

لم أعجب من ذلك ، فقمت إليها ورحت أهدىء من روعها وقد رأيتها تبكى . . لم أكن من الغباء بحيث لا أستطيع تفسير

موقفها . . هنـــاك حقيقة بدت عارية أمامى . . أن عزت صديق لخالتى .

إقتربتُ من ليلى وأنا أقول .

ـ لا تفكرى يا ليلى فى هـــذا الموضوع . . أعدك أن نعيش بعيداً عن خالتى .

ظلت صامتة فتابعتُ الحديث قائلاً .

ـ وسنختار لدى عودتنا مسكناً يعجبك . أنا متأكد أنك ستكونين ربة منزل ماهرة . . أليس كذلك يا ليلى ؟

فقالت فى صوت خافت وقد هدأت قليلا .

ـ كانت هذه دائماً أمنيتى . . لقد مللت تلك الحياة . . إن خالتى على اتصال بعزت منذ أمد بعيـــد وما كان يوماً خطيباً لرجاء . . وطالما كنت أشعر بأننا عبء عليها وربما كان عدم وجودنا فى البيت أفضل لنا ولها . . ولكننى

كنت أحبها واعتبرها فى مقام الأم سواء بسواء .

ـ وما زالت يا ليلى . .

ـ لكن لن أشاركها بعد الآن تلك الحياة فى دارها .

ـ إطمئنى، فسنتركها حتماً ياليلى، ولا تفكرى فى هذا بعد الآن .

ما زلت بجانبها حتى علت الابتسامة وجهها ومضت لحظات فاستغرقت فى نوم عميق وقمت متجهاً إلى مخدع رجاء فى بطء وحذر . حاولت عبثاً أن أفتح الباب فقد كان مغلقاً من الداخل ، وأخيراً طرقت بهدوء ثم بشدة حتى خشيت أن يشعر بى أحد فرجعت أدراجي يائساً . .

. . لم أستيقظ من نومى إلا فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى فجلست أقرأ لأدفع عن نفسى ما كنت أشعر به من ضيق ولكن أنى لى أن أتابع القراءة ورجاء تشغل أفكارى . تركت الكتاب جانباً وقمت أسير فى الردهة

الطويلة حتى رأيتها أمامى . . إتجهت نحوها ولكنها سرعان ما دلفت إلى حجرتها وأوصدت الباب وراءها وعبثاً رحت أطلب إليها أن تسمح لى بالدخول .

لم يكن صدها لى عند محاولتى الدخول إليهـــا فحسب بل لقد تحاشتنى منذ اليوم الأول من اعترافى لهـا بحبى . كنت أحس فى كل دقيقة تمر بى بأن شغفى بها يزداد ، وربما كنت أفسر أحياناً ذلك الشعور الذى ملك حواسى ببعدى عن الأخريات إذ لم أكن أرى غيرها أمامى . . ولكن ماذا لو خرجت عن محيطها إلى غيرها قد يحلو لى أن ألهو معهن وأجد فيهن ما لم أجد فى رجاء ؟ ولمَ تجاهلتُ حتى تلك اللحظـــة وجودى فى ذلك العالم الصاخب . . باريس تلك المدينة التى يكاد ينسى الانسان فيها أحزانه ؟ أى قوة أرتضى معها هذا الجفاء فى الوقت الذى أستطيع فيه أن أعبث مع الكثيرات ؟ .

مرت كل هذه التأملات فى رأسى فاستأذنت من ليلى ورجاء فى ليلة شعرا فيها بالتعب وخرجت إلى مرقص ليلى حيث أخذت قسطى من الرقص والشراب ثم رجعت إلى الفندق بعد أن أمضيت ساعات ماجنة من ليلة حمراء إستيقظت فى نهارها وأنا لا أذكر الكثير منها . .

لم يكن من العسير علىّ أن أبادل رجاء جفاءها بجفاء . . كما كان يجب علىّ ألا أترك أياماً كثيرة تنقضى دون أن أكرر تلك التجربة التى قمت بها مرة . . أن أذهب من حانة إلى أخرى . . ومن أحضان هذه إلى تلك لأعود فى آخر الأمر إلى رجاء وأنا أُظهر لها مثل ما كانت تظهر لى . . ولعلها شعرت بخطتى الجديدة وبذلك التحول الشامل الذى انتابنى فلم تعد تخشانى كما كانت تفعل من قبل .

الفصل الثالث

« . . . ان من طبيعة أولئك الذين عرفوا بكبريائهم أن يكتموا مايشعرون به ويحتملوا الكثير فى صمت وسكون . . يبكون لانفسهم . . هناك حيث لا رقيب أو شاهد على طبيعتهم المجردة . . الله التى لا تميزهم على غيرهم . . »

مرت أيام وحل يوم ممطـــر تمخض عن حادثين . .

لقد تسلمنا خطاباً من خالتى أنبأتنا فى نهايته بوجودها فى العزبة وأنهـا قد تزوجت من عزت . . كان هـذا أجل الحادثين . .

أما الثانى فهو وصول الدكتور رمزى صديق رجاء . .

كان لكلا الحادثين أثر كبير فى نفسى . . فقد أفرحنى زواج خالتى ، وساءنى حضور الدكتور . وفى تلك اللحظة وطدت العزم على ترك باريس ولكننى سرعان ما عدلت . .

لم تكن ليلى بأقل فرحاً منى لزواج خالتى ، وقد كان فى اغتباطها لهذا الخبر ما يكفى لتنسى ذلك الجو الذى عاشت فيه زمناً نقمت فيه على مسلك خالتنا قبل زواجها من عزت . .

* * *

لا أستطيع الآن أن أكشف للقارىء ما قد خفى عليه من شخصية رجاء التى كان يصعب علىّ أن أتفهمها فى تلك اللحظة ، فلم أكن أدرى إذا كانت أسيرة ضعف توطن بها أم مرض ألمّ بخلقها أم نزوات تغلبت عليها فلم تعد تستقر على حال .

كنا جلوساً نلعب « الكونكان » فى مساء يوم وصول الدكتور ، وكنت مع ليلى فى مواجهته . ورجاء التى جلست إلى يسارى . . لست أدرى الآن إذا كانت حينئذ فى نشوة الخمر فقد راحت تداعبنى بكلمات أخذت تلقيها فى دلٍ وكنت أتقبلها فى صمت وسكون .

لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك . . أحاطت قدمى بقدميها وراحت تضغط عليها فى حين أمسك الدكتور بيدها واقترب منها ولف ذراعه حول عنقها ، يهمس إليها بكلمات ضحكت لها فى إغراء . . أخذت أرقبها فى عجب مستسلماً لدعابتها وفتنتها ، وما كانت لتعبأ بنظراتى وقد أخذت بى الدهشة كل مأخذ ، فلم توجه إلىّ التفاتاً ، بل ظهرت لى وكأنها لا تحس بوجودى أمامها .

كان الدكتور رمزى شاباً قد تخطى الخامسة والثلاثين ،

طويل القامة ، تبدو الرجـــولة الـكاملة على وجهـه ، خط المشيب برأسه ، وكان قليل الاهتمام بمظهره وملبسه على الرغم من ثرائه العريض .

لا أستطيع الآن أن أقطع بتعلقه برجاء أو بحبـه لهـا فلم يكن يبدى نحوها أكثر مما يبدى الشخص لصديقة شغف بها يوماً واصبح لها زميلاً قديمـــاً لا يجد حرجاً فى الاعجاب بامرأة أمامها أو الاعتـــذار إليها للخروج لموعـد مع أخرى . .

كانت لهجة الاثنين تشوبهـــا نغمة ساخرة ، فقد راحا يتراشقـان بكلمات كنت لا أفهم منها ما يفهمان من ورائها وكم كنت أرهف سمعى دون أن أظهر لأحاول فهم مايرميان إليه من حديث ضاحك ساخر . . ولم يكن الحظ بحليفى فى أغلب الأحيان .

فى تلك الليـــلة فوجئت بأمر عجيب دهشت له . . لقد طلبت الىّ رجاء أن أصطحبها فى جولة سيراً على الأقدام ، ولمـا أخبرت ليلى ابتسمت وقالت إنهـــا ستقرأ فى سريرها وتنام مبكرة .

بدأنا المسير ولم أكن أجد ما أقول ، وكثيراً ما فكرت فى موضوعات شتى ، ولكننى سرعان ما كنت أراها سخيفة تافهة ، قد لا يلذ لها سماعها . .

كنا نسير فى شارع « ريڤولى » حتى انتهينا إلى ميدان « الكونكورد » الفسيح بأنواره الساطعة التى انتثرت فيـــه وقد انعكست على الطريق الذى بلله المطـر . . وما كدنا نصـل إلى بداءة « الشانزلزيه » حتى قالت بعد ذلك الصمت الطويل . .

ـــ سامر . . أنا خائفة . .

فدهشت وسألتها قائلا . .

— مم ؟

— . . قد أكون غبية . . ولكننى فى الواقع خائفة منك .

— ولمَ ؟

— لعلك كنت تفكر فى شىء ربما كان هو الدافع لك عند ما صارحتنى بحبك . .

— رجاء ! . . لا أخالك تظنيننى ذلك الشخص ؟ !

— . . ولكننى أردت أن أتأكد منك . .

قالت ذلك وأمسكت ذراعى بكلتا يديها وسرنا وكأننا لم نكن بالأمس غريبين أحدنا عن الآخر . .

شعرت حينئذ بقلبى يخفق ، ولم أكن أدرى لمَ اغرورقت عيناى بدمعتين ، واستولى علىّ إحساس غريب لم أشعر به من قبل . ربما كنت فى سعادة لا أذكر الآن مداها وأنا أستعرض ما حدث . . ولا أعلم هل كنت أشعر ـ وقد

انتصرت أخيراً ـ بالفرح أم بالكبرياء . .

ما كدنا نصل إلى تلك الدائرة من الطريق التى تحيط بقوس النصر فى ميدان « الايتوال » فى نهـــاية « الشانزلزيه » حتى توقفنا عن المسير وقد كان الطريق مقفراً فيما عـــدا السيارات التى كانت تقطعه بسرعة . . أمسكت برجاء من كتفيها ورحت أحدق النظر فى عينيهـــا وقد رفعتهما الىّ فى تساؤل وســـذاجة مغرية ، فضممتها إلى صدرى وطبعت قبلة طويلة على جبينها ، ثم طوقت خصرها النحيـــل بذراعى واتجهنا نحو الفندق فى الطريق الذى أتينا منه . .

سرنا الهوينا ونحن فى صمت حالم رحت فيه بأفكارى إلى عالم حلو بعيد ، وطالمـــا وددت ألا أستفيق من تلك النشوة الهادئة التى تملكتنى حتى اقتربنا من الفندق فقلت لها .

ـ رجاء ! . والدكتور رمزى ؟

صمتت وهى تنظر الىّ بعينين بريئتين . فاستطردت قائلا .

ـ أنا لا أريد أن أراه معك بعد اليوم .

فهزت رأسها موافقة .. وفى تلك الليلة افترقنـــا أمام حجرتها ولا أعـــلم لمَ اكتفيت بأن أضمها إلى صـــدرى وأطبع على جبينها قبلة خاطفة . .

* * *

فى صباح اليوم التالى رأيت رجاء جالسة فى صالون الفندق وبجانبها الدكتور وقد اضطجع فى مقعده ووضع قدماً فوق الأخـــرى . . وما كادت ترانى حتى ابتسمت وناداتنى وطلبت الىّ الجلوس فاخترت مقعداً بجانبهـــا وقد بلغ بى الغضب حداً بعيداً . .

وجدت أن عدم وجودى بينهما ربما كان أجـــدى لهما ولى فقد انصرفا إلى حديث لم أكن أفقه منه كلمة . .

إستأذنت فقمت إلى حجـــرتى وقد غلبتنى الدموع فرحت أبكى بتأثر .. ولم يكن الدافع لذلك البكاء الغريب ســـوى شعورى بأن كبريائى قد أُصيب فى الصميم .

لقد كانت لحظـــة غريبة ؛ يشعر فيها الانسان أن العـــالم وأولئك الذين يعرفهم على الأرض قد تآمروا ضده . لا يحس نحوهم بغير النفـــور والحنق .. ويتمنى لو لم يكن قد وُجد فى ذلك الوقت أو لم تكن الظروف قد هيـــأت له أن يعرف هؤلاء الذين يسببون له آلامه وأحزانه ..

لم أكن فى هذه اللحظة قادراً على أن أتصور ـ ولو لقليل ـ وجه تلك التى كنت معها بالأمس فى حـــلم جميل .. رحت أحتقر وجودى وكيـــانى وعجبت من نفسى .. كيف يحدث أن أبكى ؟ ! وهل يليق بى أن أترك عبراتى تنهمر على وجهى كما يحـــدث لأولئك الذين كنت أهـــزأ منهم

وأسخر بهم ؟ ولمَ أعبـــأ برجاء ؟ وهل يُعقل أن أتأثر أو أهتم بتلك السخافات ، فأنا لا أحبها ، ولم أحبهـــا .. لأذهب الليلة إلى غيرها وسترى غداً كيف يكون شعورى نحوها ..

إن من طبيعـــة أولئك الذين عُرفوا بكبريائهم أن يكتموا ما يشعرون به ويحتملوا الكثير فى صمت وسكون ؛ يكون لأنفسهم هناك حيث لا رقيب أو شاهد على طبيعتهم المجردة .. تلك التى لا تميزهم عن غيرهم ..

كنت أوقن أننى أغار من الدكتـــور لا لحبى لرجاء ولكننى كنت أود أن تصبح لى .. وحدى . وكثيراً ما كانت الأنانيـة تجعلنى لا أحس بغـــيرى على الأرض ، فيبطن لى الواقع خيبة أمل كبيرة تهدم ما أراه فى خيالى ..

جاءتنى ليـــلى بعد قليل وأخبرتنى باتفاقها مع رجاء على التنزه فى قارب فى بحيرة غابة « بولونيا » فسألتهـــا لتوى .

ـ والدكتور رمزى ؟

ـ لقـــد عزم على السفر ، وربما هو يستعـــد الآن .

فكرت قليلاً ثم قلت .

ـ آسف يا ليلى . . سوف لا أذهب معكما .

ـ لا تكن غبياً . . إنها فكرة رجاء .

ـ وماذا يهمنى ؟ !

فاقتربت منى وجلست بجانبى وقالت .

ـ أراهن أن موقفك منها قد تغير . . فماذا حدث ؟ ها . . أخبرنى . إننى شقيقتك ولا يجب أن تخفى عنى شيئاً . .

ـ من يكون هذا الدكتور ؟ أهو ألعـــوبة فى يدها ؟ ! أم هنـاك ما يجعلهـا تعاملنى تلك المعاملة الشاذة فى حضوره ؟ !

ـ أوه يا سامر . . أؤكد لك أن لا شىء بينهما الآن . سوف تضحك لو أخبرتك أنهـــا سألتنى عما إذا كنت أقبله

زوجاً لى !!

ـ زوجاً لك ؟ ! لو كان هذا ما يريد لحاول على الأقل أن يخفى تدلهه بها .

ـ إنه لا يدرى شيئاً عن ذلك الموضوع .

ـ وأنت ؟ ماذا كان جوابك ؟

ـ أهذا سؤال توجهه إلىّ ؟ ! أن أرضى بذلك الشخص المغرور ؟ ! أوه . إنك تمزح . . لقد رفضت طبعاً . . وشجعتنى رجاء على ذلك . .

مرت بى حينئذ فكرة طارئة . . إعتقدت أننى لمست طرف الخيط الذى يَسْهُل لى معه حل المشكلة . . إستولت علىّ إثرة رخيصة طالما أسفت لملازمتها إياى فى أوقات كان يجب أن أكون أثناءها رجلاً نبيلاً لا طفلاً أنانياً . قلت فى هدوء وإغراء .

ـ إننا لا نعرفه ياليلى . . وقد يكون أفضل مما تتصورين .

فردت علىّ لتوها .

ـ ماذا تنتظر أن يكون؟ أنت لا ترضى أن أقبل رجلاً كان لرجاء فى وقت من الأوقات ! . .

رمت إلىّ بهذه العبارة ولم أكن أعرف إن كانت تقصد شيئاً من ورائها أم فاهت بها فى براءة بعيدة عن أن تعنى ما جال بخاطرى حينذاك . .

* * *

بعد ساعات كنا فى قارب صغير أمسكت بمجدافيه أعمل بهما فى مياه البحيرة الواسعة وقد التصقت رجاء بى وجلست ليلى بعيداً عنا تقرأ كتاباً انصرفت إليه ، أو لعلها تظاهرت بذلك .

لم أكن قد دعوت رجاء لمكانها الذى اتخذته . . بل

لم أكن قد وجهت إليها كلمة واحدة منذ تركنـــا الفندق . . ولعلها لحظت ذلك الجفاء، فـــلم تشأ أن تعاملنى بمثل معاملتى لهـا . إبتسمت فى دلال وهى تقول فى صوت خافت .

ـ بجانبي طفل صغـــير يتظاهر بالغضب . . أتعرفه ؟

فأجبت دون أن ألتفت إليها .

ـ عجباً ! لم أكن أدرى أننى غاضب حقاً ! . .

ـ أهكذا يفعل إذن الرجل المهـــذب عند ما يكون فى صحبة سيدة ؟ يتركها ويركن إلى الصمت الطويل دون أن ينبس بكلمة ! . .

ـ آسف . . لم أكن أجد ما أقول .

ـ إن الرجل المهذب يجد دائماً ما يقول .

ـ لو تكلمت فسوف يكون حديثى سخافة تافهة .

ـ إذن تكلم ، ولو نطقت بسخافة . ومع ذلك فالرجل

المهذب يتكلم ويجد دائماً موضوعاً بعيداً عن أن يكون سخيفاً .

ـــ قد لا أكون رجلا مهذبا . .

ـــ خسارة يا سامر .

ـــ أجل . . إنهـا خسارة لى .

ـــ بل لى أنا . .

ـــ أيهمك أمرى ؟ !

ـــ وكم يهمنى أمرك !

ـــ أهنئك يا رجاء . . إننى أعجب دائمـــاً بسخريتك على الرغم منى .

فهزت رأسها معترضة وقالت .

ـــ أوه يا سامر . . أنت لا تفهمنى . إن الرجل المهذب يستطيع دائماً أن يفهم النساء .

ـــ لقد شبعت من حديثك عن الرجل المهذب . هل

أستطيع أن أعرف من يكون ؟

ـ قد تكون أنت ذلك الرجل .

ـ أو لعله الدكتور رمزى ؟

ـ مثلاً . . إنه نموذج للرجل المهذب .

قالت ذلك بخبث دون أن تلتفت لترى وقع كلماتهـــا فرمقتها بنظرة طويلة ، ثم قالت .

ـ فى الواقع أنه نموذج صالح . . سوف آخـــذ عنه أن اضطجع بجانب سيدة وأضع قدماً فوق أخرى .

ـ إن ذلك يعجبنى فى الرجل .

فسألتهـــا لتوى .

ـ المهـــذب ؟ !

ـ أراك قد أعجبت بالرجل المهذب !

ـ لا أدرى فى الواقع متى يجب أن أكـون ذلك الرجل

ومتى لا يحب . . هل أستطيع أن أعرف منـــك كيف أعامل شخصاً ينقلب على أمره بين لحظـــة وأخرى فيتغير من حال إلى حال ؟

سألتنى وهى تعرف الجواب .

ـــ أهى صديقة ؟

ـــ قد تكون ذلك .

ـــ إنها نصيحة أسديها إليـــك . . أرأيت كيف يمسكون الطفل الصغير ويقلبونه فوق الركبة ويضربونه كلما أتى أمراً يستوجب العقاب ؟

ـــ إنها ليست بطفلة . .

ـــ ولو . .

ـــ هل يليق بالرجل المهذب أن يفعل ذلك ؟

ـــ كم أحبه لو فعل !

كان القارب ينساب فى مياه البحـــيرة ببطء وهدوء وقد انبعثت موسيقى فالس الغابة السوداء من « جرامفون » بعيد على الشاطىء ، فرحنا فى صمت طويل لا يعكر صفوه سوى صوت المجداف وهو يضرب فى الميـــاه ضربا منتظماً راح فى انسجام مع اللحن الجميل الذى كان يصل إلينا من بعيد ثم أخذ يضعف ويختـــفى حتى وجدنا أنفسنا من جديد نستمع إلى ضربات المجداف منفرداً بتعكيره صفو ذلك الهـــدوء الشامل الذى كان يخيم علينا . .

فى تلك اللحظة بدأت أشعر بوجود ليـــلى ، التفت إليها فرأيتها وقد انكبت على كتابها . .

* * *

كان علينا أن ننتظر الدكتور رمزى مساء ذلك اليوم فى ردهة الفندق لنودعه وقد عزم على السفر فى قطار مرسيليـــا

الليلى . . وكان علىّ أن أتظاهر أمامه بالأسف الشديد لتركه ايانا ولما يمكث معنا إلا قليلاً . . ولا أدرى إذا كان يحمل لى حينئذ نفس الشعور ، وإنما أدرى حقاً أننى كنت أحس بالسعادة تسرى فى كيانى .

. . ونزل الدكتور من حجرته وودعته رجاء كما ودعناه إلى أن اختفت سيارته عن الأنظار فدخلنا الردهة ورحنا بعد دقائق فى مرح من جديد ، حتى قامت ليلى إلى فراشها وقد شعرت بشىء من التعب . . وبعد دقائق كنت فى إثرها .

* * *

بدأ النعاس يدب فى عينىّ ليلى حتى نامت ، فقمت فى حذر وفتحت الباب بهدوء وخرجت متجهاً نحو حجرة رجاء ، وكم كانت دهشتى عظيمة عند ما وجدت الباب غير موصد ففتحته ودخلت حيث كانت نائمة . جلست على فراشها

ورحت أتأمل قسمات وجهها الفاتن وذلك الهـــدوء الساذج الذى انطبع عليها .. ومن ثم أخذت أفكر .. هل تكون هذه المخلوقة رجاء ؟ . تلك التى لم أر فيها إلا القوة والسخرية ! . فكرت طويلاً وبدأ التردد ينتابنى ، ولست أخفى هنـا ذلك الخوف الذى أحسست به فجأة .. والرغبة فى الاختفاء من أمامها قبل أن تشعر بوجودى .

تركت الحجرة كما دخلتها بحـــذر ، واستلقيت على فراشى وأنا أحاول النوم دون جـــدوى . لم أستعد هدوئى إلا وأنا فى طريقى مرة أخـــرى إلى رجاء .. دخلت إليها وهززتهـا وأنا أهتف باسمها ففتحت عينيهـــا فى كسل ثم نظرت إلىّ دون أن تتلفظ بحرف حتى استفاقت وجلست على سريرها . وفى تلك اللحظة أحتضنتهـا فاستسلمت لى وقد هتفت باسمى .

.. وكانت ليـــلة ..

* * *

الفصل الرابع

« انها كالاخريات . .

. . . . . .

قمت فى ظهر اليـــوم التالى على صوت التليفون ، وكم كانت دهشتى كبيرة عند ما وجـدت الدكتور رمزى يطلب الىّ أن ألقـاه فى الصالون لأمر هام . كانت ليـــلى لا تزال تشعر بتوعك فطمأنتهـا وأشرت عليها بملازمة الفراش .

بلغت دهشتى أشدها عنـــد ما فاتحنى الدكتور برغبته فى الزواج . . ومن ليلى شقيقتى . . تلك الفكرة التى جعلته يعدل عن سفره ويرجع من حيث ذهب وكله أمـــل فى إجابة رجائه . .

كان ذلك الموضوع كافيـــاً ليثير فى نفسى إحساسات شتى ، فلم أكن أستطيع أن أقطع برأى حتى أعرض الأمر على ليـــلى . . كما لم أكن براغب عن فكرة زواجها من الرجل الذى كان غريمى بالأمس . .

ولكن ماذا يكون رأى ليـــلى ؟ هل تقبله اليوم وقد رفضته من قبل ؟ أترضى بالرجل الذى كان لرجاء بالأمس ؟ وماذا تقول رجاء نفسها لو علمت بحـــديث اليوم ؟ أكانت جادة فيما عرضت على ليـــلى ؟ أتراها قد فصمت عـــرى صداقتهـا بالدكتور ؟ ولو تزوجت ليـــلى من صديقها القديم

هل يكون ذلك مدعاة لسخريتها من شقيقتى ؟

جالت هذه الاسئلة المتلاحقة فى ذهنى ، ولم أكن أجد لها جواباً فى مثل السرعة التى رحت أتساءل بها .. لا أدرى حقاً إذا كنت قد فرحت حينـــذاك أم كان يجدر بى أن أرفض لتوى قبل أن أستطلع ليلى رأيها ؟ .

ولعل الدكتور لم يكن ينتظر منى اعـــتراضاً ما فقد دهش لما صمت برهة شعرت بأنها قد طالت فقلت .

ــ ربما كان الأمـــر يهمها أكثر مما يهمنى .. ولكن يا دكتور هل تظن أنها تقبل شخصاً كان صديقاً لصاحبتها ؟ . إن المرأة قد تضحى بسعادتهـــا لترضى فى نفسها حاســـة الكبرياء . وقد لا تكون ليـــلى من أولئك اللاتى يخضعن بسهولة لمأرب يتطلب أن تنزل ـ ولو قليلاً ـ عن كبريائها ، وعلى كلٍ سأخبرها وستكون الكلمة بطبيعة الحال لها ، وتأكد

يا دكتور أنك ستكون دائماً نعم الصديق ولو كان ردها الرفض .

كنت أوقن بأنى أود صداقته ؛ وكم من مرة كنت أرى نفسى ضعيفاً بجانبه ، صغيراً حقيراً ، لا يجد فيّ الكثيرات ما يرجونه فى الرجل .. لا أدرى لمَ فهت بتلك العبارة الأخيرة ، ولمَ رحت أجرى وراء صداقته ، وأصارحه بتلك الفكرة التى مرت بذهنى حيناً ، ربما كان ذلك بالرغم منى ، فقد تمنيت حقاً أن أكون صديق ذلك الرجل .. غريمى بالأمس ..

ولكن لمَ أكرهه وقد أصبحت رجاء لى ؟ لمَ أحقد عليه وقد جاء يطلب يد أختي ؟ أليس فى ذلك من دليل على انتهاء علاقته برجاء ؟ . أيعقل أنه يحب رجاء فى الوقت الذى يرجو فيه الزواج من شقيقتى ؟

قد يكون هذا الرجل غريب الأطوار ، كما قد يكون

بسيطاً كل البساطة ، وربمـــا كنت أنا الذى أحاول وضع العقبات فى طريق سهل منبسط . . قد أكون اليـــوم فى مثل قوة الدكتور وفى غير حاجة لصداقته . . فهـــل أنا أخشاه ورجاء قد أصبحت لى ؟ !

ولكن ماذا تكون رجاء لى الآن ! ؟

إنها كالاخريات . . ربما اعتقـــدت يوماً بغموضها وبتلك الغرابة التى تكتنف طباعها وخلقهـــا . . قد أكون اليوم غيرى فى الأمس . . ذلك المتلهف عليها الذى كان يقنع منها بكلمة ترضى فى نفسه نزعة الأنانيـــة التى تدفعه ليشبع كبرياءه بحبهـــا له . .

كنت فى صباح ذلك اليوم متقلب الفكر ، لم أستطع أن أقطع برأى فيما لو كنت أحب رجاء . . وفجأة أخرجنى الدكتور من عالم تفكيرى بقوله وقد اقترب منى .

ـ سوف أترك لك مهمة اقناع ليـــلى يا سامر .. ربما هى تظننى صديق رجاء .. نعم ، لقد كنت صديقها .. ولكن يجب على المرأة ألا تدع نفسها تجـــرى وراء خيال واهم .. وراء رجـــل تريده ملاكاً . رجاء لا تعدو الآن لى غير امرأة أحببتها يوماً كما قد تكون أنت أحببت الكثيرات من قبل .. أرى أنك لم تقتنع بعد .. ولـــكن ألا ترى أن رجاء تميل إليك وأن ذلك دليلاً جليـــاً يعزز ما أقول ؟ أنا أعرف أنها تحبك ، ولعـــلى أفشى سراً باحت به إلىّ يوما لو أقطع بحبهـــا لك ..

فقلت له فى تساؤل .

ـ أتظن ؟ .

ـ أنا واثق يا سامر . أعرف أنه يبدر منهـــا فى بعض الأحايين من التصرفات ما تعده غريباً ، ولكنها يا صديق

غامضة ومن العسير أن تفهمها كما نفهم حقيقـــة سافرة . . قد تنكر عليك اليـــوم ما أعطت بالأمس ، ولكن ثق بأنها فى الغد غيرها اليوم . . لمَ لا تكون جريئاً معها . . فظاً . . خشناً ؟ !

ـــ ولكنها قد تفضل الرجل المهذب .

ـــ إياك وأن تكون ذلك الرجل المهذب .

مرت برهة سكون قصيرة مر بى خاطر أثناءها فقلت .

ـــ ولكن يا دكتور . . كيف علمت أننى أحبها ؟

فابتسم وقال .

ـــ يا صديق . . الصب تفضحه عيونه .

ـــ لو كان عاشقاً حقاً . .

ـــ ومهما حاول أن يغالط نفسه أو يخدع غيره .

... أتعتقد أننى أحاول أن أخدعك ؟

ـــ ومن قال ذلك ؟ .

سكتُ وقد رأيت من الأوفق أن أغير مجرى الحديث ، ولكننى لم أجد ما أقـــول ، فقمت مستأذناً ووعدته بأن أعود إليه بعد لحظة .

تركت الردهة صاعداً إلى ليـلى ، وفى الطريق قابلت رجاء فاستقبلتنى فى شىء من الجفاء ، ولمـــا أخبرتهـا بمشروع الدكتور حدقت فىّ بعينين ساهمتـــين ؛ وتركتنى وتابعت سيرها فوقفت أرقبها فى حـــيرة من أمرها ؛ ولكنها ما لبثت أن توقفت عن المسير ورجعت إلىّ وسألتنى .

ـــ هل تعتقد يا سامر أن ليلى سترضى ؟

ـــ ولمَ لا ؟

ـــ لقد رفضته من قبل .

ـــ ربما نرفض بالأمس ما نرتضيه اليوم .

ـــ وأنت .. ما رأيك ؟

ـ إن الدكتور رجل مهـــذب . . كما اعـــترفت أنت بذلك . . ولست أجد فى الواقع مانعـــاً من قبوله زوجاً لليـــلى .

ـ أنت لا تعرفه .

ـ حسبى رأيك فيه .

ـ لقد كنت أهزأ بك .

ـ إننى أقدر صراحتـــك يا رجاء . . وعـــلى كل حال لا أستطيع أن أقطع برأى . إن الأمر يهم ليلى أكثر مما يهمنى .

ـ سوف أصارحها بكل شىء .

ـ بمَ ؟

ـ إن الدكتور لا يليق بهـــا . . هو غير جـــدير بها وكفى . .

ـ لا أرى إذا كنت ستفعلين ذلك بدافع حبك لها .. أم حبك للدكتور نفسه .

ـ إن ليلى كشقيقتى تماماً .. أحبها كما أحب نفسى .

ـ لعلك تنسين يا سيدتى أنها شقيقتى أنا الآخر .

ـ ولكنك لا تفهم فى مثل هذا الموضوع .

ـ لا أكتمك إعجابى بذكائك !

ـ أنت تهزأ بى .

ـ عفواً .

ـ بل أنت تفعل .

ـ أراك مضطربة . ولعلك فى حاجة إلى الراحة .

ـ سامر .. أنت لا ترضى أن تتزوج ليلى من رمزى .. لا يمكنك أن تقبـــله لها .. إننى أحبك وأود الخير لكما .. إستمع إلىّ ولا تتسرع . إن الدكتور لا يمكنه أن يحب .

فقاطعتها فى حدة وقد نفذ صبرى .

ـ أرجوك يا سيدتى ألا تنظـــرى فى مرآة شخصك .. لا تعتقدى فى النـــاس ما ترينه فى نفسك وخلقك من صفات أراها ـ

تجهم وجهها فجأة وقاطعت كلماتى قائلة فى حزم .

ـ لك أن تنعتنى بمـــا تشاء .. ولكن لن يتزوج رمزى من ليـــلى .

* * *

تبعت رجاء إلى حجرتهـــا وقد أغلقت بابهـا . دخلت فوجدتها وقد ارتمت على سريرها تبكى ، ولما شعرت بوجودى أمامها إلتفتت نحوى وطلبت إلىّ أن أخرج ولـــكننى لم أفعـــل .

قد يصعب علىّ أن أتصور الآن لمَ استولى علىّ حينئـــذ

ذلك الضعف الذى انتابنى وقتاً كنت فيه أكثر ما أكون احتياجاً إلى الحزم والتبصر . .

إقتربت منها وأنا أقول فى صوت مضطرب .

ـــ سوف أنسى يا رجاء ما فات ، لو وعـــدت بطىّ ذلك الحديث الذى مضى .

لم تنظر الىّ بل قالت رداً على ما فهت به .

ـــ إبتعد عنى . . أرجوك .

ـــ لن أتركك قبل أن نسوى ما بيننا .

أخذت بيدها واحطتهـا بذراعى فنظرت إلىّ طويلاً فى براءة وهدوء . . ولم أشعر فى تلك اللحظـــة كيف تسنى لى أن أنسى الدكتور . . إنها لحظـات ضعف كانت تنتابني كما قلت . .

لم يطل بنـا الوقت فنهضنا ذاهبين إلى ليـــلى . .

طرقنا الباب دون أن نسمع مجيباً فدخلت فإذا بها طريحة الفراش تتلوى من الألم . . لم أشعر بنفسى وأنا أنزل إلى الدكتور أناديه لاسعافها . . كانت فترة قاسية تلك التى أمضيتها واقفاً فى ركن الحجرة ، ورمزى يفحصها وقد وقفت رجاء بجانب الفراش شاردة قليلة الحركة .

بدت فى عينى كتمثال جامد لمخلوقة جمعت من الأنانية ما ابتلى به عالم الإنسان .

لقد أشار رمزى بوجوب إجراء عملية الزائدة الدودية . ولم يكن هناك مفر من القيام بها . . فنقلنا ليلى إلى مستشفى قريب ، حيث أشرف رمزى بنفسه على إجرائها . .

لا أخفى هنا تلك الصورة التى بديت فيها منذ لحظات . . طالما شعرت بضعفى أمام رجاء ، وكثيراً ما استسلمت ساكنا لنزواتها ودلها ، أقنع بكلمة وأسكن لحركة ، إلى أن حان

الوقت الذى شعرت فيه بأننى بدأت أفيق من غفلة حجبت عنى طويلاً حالة لم أزد فيها عن أن أكون طفلاً .

لقد مرت بى فترة وجدتنى أجرى وراءها ساعياً إليها حتى لحقت بها فاختفت أمامى كل فكرة تخلق منها آلهة كتلك التى قدستها حيناً . . ثم بدت لى سافرة عن كل زخرف . . واحدة كالاخريات . .

أفقت فجأة من تفكيرى ورحت أعجب من نفسى لاهتمامى بامرأة شغلتنى زمناً كان علىّ فيه أن أوثر ليلى بما أزخر به من إحساس وعاطفة . لقد بشرنى الدكتور بنجاح العملية ، وقد كنت أنتظر فى صالون صغير . شعرت بالسعادة ولا أعلم لمَ تجهم وجهى لما رأيت رجاء وقد دخلت الصالون وجلست بجانبى فى هدوء وصمت . لا أدرى لمَ نقمت فى تلك اللحظة على ذلك الوجه الذى شغفت بحبه يوماً . .

تركنا الدكتور فخيم علينا صمت مقبض استمر طويلا وأنا أشعر بنظراتها الخـــاطفة وكأنها كانت تنتظر منى كلمة ولـكن عبثاً .. فلم أكن أجد ما أقول .

ربمـا يعجب القـــارىء لتفـكيرى فى نائلة حينـذاك .. وقد دهشت أنا من نفسى لتلك الموجة من العاطفـــة الهائجة المائجة التى غمرتنى وأنا جالس بجوار رجاء ، وليلى فى فراشها .

قمت لتوى وصعـــدت إلى ليلى .. لم تـكن قد استفاقت بعد من المخـــدر ، بل كانت فى سبات عميق ؛ فجلست بجانبهـا وما هى إلا هنيهـــة حتى أتت رجاء وجلست أمامى صامتة ساكـتة ..

إن تلك الإثرة التى عهـــدتها فى نفسى قد جعلتنى أرى أننى لست جديراً بتلك الصلة التى تربطنى بليلى .. أنا لا أستحق أن أكون أخاها .. أخ ذلك الملاك الصامت ..

لم أشعر إلا وقد ارتميت عليهـــا ورحت أقبل جبينها وقد اغرورقت عيناى بالدموع التى انهمرت على وجهها الساذج ثم شعرت بيد رجاء وقد أمسكتنى من كتفى فقلت لها دون أن ألتفت اليهـا .

ــ فات وقتك يا سيـــدتى .. كنت نذلاً ولا أود أن أكون ذلك النذل .. إننى أحب ليلى .. أحبها أكثر من كل شىء .. أكثر مما اعتقدت بحبـــك يوماً .. أنا لم أحبك لقـــد عشت فى أوهام وخيـال كاذب .. إبتعدى عنى .. لقد أفقت من غفوتى ..

ــ أنت واهم .. جبـــان . يمكنك أن تهرب من حقيقة واضحة .. ولكن إلى حين .

ــ إبتعدى عنى .. أرجوك ..

ــ لو اعتقدت بأن فى ذلك صالحك لفعلت .

ـ أمامك مريضة ، ولا أقل من أن تحترمى شعـــور أخيها . . دعينى فى هدوء .

ـ سوف أتركك ما دامت هذه رغبتك . سأقـــرأ فى حجرتى وقد أستمر فى القراءة حتى منتصف الليل . . إلى اللقاء .

* * *

كنت والدكتور جالسين نتجـــاذب أطراف الحديث فى حجرة ليـــلى وقد اشتركت معنا فى بعض نواحيه حتى اقترب منتصف الليل . . ومرت الثانية عشر . . فانعقد لسانى عن الكلام ، واستولى علىّ ضيق شديد لم ينقذنى منه إلا وصولى إلى الفندق .

كانت الساعة الواحدة قد انتصفت لما فتحت باب حجرة رجاء ، فوجدتها جالسة على مقعد كبير . . نهضت واقفـــة حين رأتنى وابتسمت وقد شع من عينيها بريق خاطف وقالت .

ـ كنت أوقن أنك ستأتى . . وقد أتيت .

نطقت بالكلمه الأخيرة فى قوة وسخرية ووجدت نفسى أندفع نحوها وأطوقها بذراعىّ وأنا أتساءل كيف يكون فى قدرتى أن أعيش بعيداً عن رجاء ! ! .

وفى الصباح تناولنا الإفطار سوياً ثم اتجهت إلى المستشفى لنعود ليلى ، وهناك وجدت باقة من الورود فالتفت إلى ليلى متسائلاً فاحمر وجهها وقالت فى خجل .

ـ الدكتور .

ولم أدرك كنه ذلك الدافع الذى حفزنى على القول .

ـ إنه شاب نبيل . . لم أكن أعرف عنه ذلك .

وجدتنى أوزع نظراتى بين ليلى ورجاء التى أدارت رأسها وراحت تنظر إلى الورود ، وبعد لحظة أتى الدكتور وصافحنا وأخذ يتودد فى الحديث مع ليلى . . لم تكن تخفى

على تلك العاطفة المتبـــادلة بينهما والتى قد تكون وليدة ساعات عند ليـــلى . شعرت بسعادة فياضة اهتزت لها فى نشوة قد لا أحس بهـــا لو كنت أنا الدكتور نفسه . ولا أعلم الآن لمَ أسقطت رجاء من تفكيرى فى ذلك الحين .

وفى طريق العودة عند الظهر كنت أســـير مع رجاء فى ميدان « الكونكورد » الواسع لما أخبرتنى بأنها أرسلت فى استدعاء خالتى ، وربما تصل من لحظة لأخرى .. سألتها عن سر دعوتها اياها فقالت .

ـ من الأفضل وجودها بجانب ليلى .

ـ ولكن حالتها لا تستدعى ذلك .

ـ لست أتكلم عن المرض الذى ألمّ بها .

ـ عمّ تتكلمين إذن ؟ !

ـ لعلك تتجاهل علاقتها برمزى .

ـ هذا أمر لا يهمك كما يهمنى أنا .

ـ أنت ساذج . . ترميها لرمزى ضحية بريئة .

ـ قد يكون ذلك . . وإننى أتساءل لو كان حبك للدكتور يدعوك للأمل فى قبوله زوجاً . . بدلاً من أن تقبله أختى .

ـ أنا ؟ ! . أنا لا أرضى به .

ـ لأنه لا يقبلك يا صديقتى .

ـ وما ادراك ؟ أنت كاذب .

ـ يؤسفنى أن أكون قد قلت الصدق .

ـ ومن أين لك أن تعلم ؟

ـ رأيتُ كما رأيتِ بائعة من الورود عند ليلى .

ـ إنها مجاملة عادية يقوم بها أى كائن كان . .

وفى الواقع فقد شعرت بضعف حجتى ، ولكننى قلت .

ـ لو كنت أنا الدكتور لمـــا اقتصرت نيتى على مجرد

المجاملة . أنا رجل وقد شعرت بمثل ما يحدث اليوم .

ـ لا أعلم كيف يمكنك أن تطرق موضوعاً لا تزيد معلوماتك فيه عن معلومات طفل صغير .

فابتسمت فى سخرية وقلت .

ـ قد يشعر ذلك الطفـــل الصغير بما لا يمكنك أن تشعرى به يا رجاء . . إنه يعرف ما هو الحب ، ويعـــرفه حيث لا تعرفيه أنت . . إننى أحب يا رجاء . . أحب كائنـــاً بعيداً قريباً . . أراه الآن كما أراك ، بل ربما كان لى أقرب منك الىّ . . وكم أود أن أكون ذلك الطفل الصغير . . ولا أكون غيره ، وحينئذ يحق لى القـــول بأنى عرفت الحب . . تلك العاطفة النبيـــلة التى لا تقتحم كل قلب . . إنها نفيسة قد لا يفهمها شخص كما يفهمها كل قلب .

ضحكت فى سخرية وعصبية وقالت .

ـ إنى آسفة .. أراك الآن على غير ما اعتقدت .

ـ مرحى يا سيدتى مرحى . .

ـ لك أن تسخر منى . . ممن اعتقدت بحبـــك لها . . كان يجب علىّ ألا أبادلك تلك العاطفة التى كاشفتنى بها .

ـ كفانا من تلك الكوميديا يا رجاء . . أنت لم تحبينى يوماً .

ـ أتعتقد أننى ألهو بمثل تلك الكلمات ؟ !

إلتفت إلى وجهها الذى بدا هادئاً ســـاذجاً فكدت أندم على ما قلت .

كان ردى الصمت الطويل . . والذى طـــال حتى وصلنا إلى الفندق . . مررت على صندوق البريد فلم أجـــد شيئاً . . عبس وجهى ورأيتنى أغضب دون أن أعـــلم الدافع . . وفجأة سألتنى رجاء عن السبب فقلت .

ـ كنت أنتظر رسالة .

— ممن ؟

— وممن تكون؟ من نائلة طبعاً .

كنت أعلم أنى أكذب ولكننى أحسست بارتياح لانتظارى تلك الرسالة . . ولعل من العجيب حقاً أن أختلق الأكذوبة وأكون أول من يصدقها ، فلم أكن أمكث برهة دون أن أسأل ، مرتقباً ، عن وصول الرسالة . . أنتظر موعد البريد لأذهب إلى الصندوق وهناك يخيب أملى وأرجع حزيناً آملاً فى وصولها فيما بعد .

على أن الأعجب من ذلك وقوع ما كنت أنتظر ، أو ما لم أكن أنتظر . . ففى المساء وجدت رسالة فتحتها وألقيت نظرة متلهفة على الإمضاء فإذا بها من نائلة ! .

لم تكن الرسالة لى ، بل لليلى . . تهنئها فيها بعيد ميلادها فى اليوم التالى . . ذلك اليوم الذى كان لى كل شىء . .

رجعت بخيـــالى إلى عام مضى . . بدت أمام ناظرى تلك اللوحة التى أذكرها الآن . . وأذكـرها تماماً . . طرقت أذنى نغمات « جرانادا » وفاح فى أرجاء المكان شذى عطـر جميـل لم يكن بغريب عنى .

كانت فترة من الماضى وجدت فيهـــا ما لم أجد بين أناس أعيش بينهم وأتفقد فيهم عبثاً ذلك الذى أرى فى خيـــال واهم كنت أشعر بأنه سراب .

الفصل الخامس

« لماذا الرد والقلب الأمر على أوضاع عدة ؟ هل يساورنى الشك الآن فى علاقتى بها ؟ ! »

لبثنا بباريس حتى شفيت ليلى ، وجاءتنا خالتى وعزت بك .

لم يكن من الصعب علينا أن ننال منها الموافقة على زواج ليلى من الدكتور . . رحبت بالفكرة ما دامت ليلى

سمها قد قبلته . .

ولم يمض على وصولها أيام حتى شرعنا فى الرحيل . . لا
درك حقاً ذلك الباعث الذى أشعرنى بسعادة قلما أحسست
ا من قبل . . كنت أرى نائلة أمامى طوال الوقت بشعرها
لأشقر ووجهها الهادىء فى صورة فاتنة باهرة لا أستطيع
معها أن أتمثل تقاطيعها بدقة بل كنت ألمح جمالاً فى وجه
سم قد يكون لنائلة نفسها كما قد يكون لأخرى .

أحسست رجاء باعراضى عنها فقد كان يمر اليوم دون
ن أوجه إليها كلمة أو أكلف نفسى عناء الالتفات اليها ،
لذت هى الأخرى بالصمت حتى كانت ليلتنا الأخيرة من
رحلة فقالت لى فى هدوء .

ـ أحقاً أنت تحب نائلة يا سامر ؟

فرمقتها بنظرة باردة وقلت .

ـ ألا تعلمين بعد ؟

ـ بالرغم مما بها ؟ ! !

فدهشت من كلماتها ولكننى رددت .

ـ بالرغم مما بها .

ـ أتعلم هى بحبك لها ؟

ـ طبعاً .

ـ وما رأيها ؟

ـ وبأى حق أخبرك برأيها .

فابتسمت وخفضت بنظرها وقالت .

ـ كأخت .

ـ ومنذ متى تعتبرين نفسك أختاً ؟

راحت تداعب صفحـــات كتاب كان معها ثم التفتت إلىّ باسمة وقالت .

ـ قد أكونها منذ اليوم .

ـ لا بأس . . سأخبرك بكل شيء . . فأنا أحبها وأعتقد أنها تبادلني نفس العاطفة .

ـ لا بد وأن تكون أمضيت وقتاً طويلا لتصارحها بحبك . .

ـ أبداً .

ـ هل فهمتَ ردها ؟

ـ أعتقد ، فقد كانت كلماتها صريحة .

ضحكت في دلال وقالت .

ـ أنت تكذب يا سامر . . أؤكد لك أنك كاذب .

رمقتها بنظرة ساخرة وأنا أحاول أن أخفي عجبي من تحديها ، ولكنها قالت أخيراً .

ـ فائلة لا يمكنها أن تقول شيئا . . إنها خرساء يا صديقي .

كان لكلماتها وقع شديد فى نفسى ، فقد صُعقت لتلك المفاجأة التى لم أكن أنتظرها أو أحسب لها حساباً . . ولكننى إعتدلت فى جلستى وقلت لها فى عصبية .

ـ . . يمكنك أن تقولى أكثر من هذا . . أخبرينى أنها عمياء أيضاً . . تكلمى . . ماذا تنتظرين ؟

ـ ولمَ أخبرك بذلك وهى ليست بعمياء ؟ !

ـ أتعتقدين أننى من البله لدرجة تصديق ما تهذين به ؟

ـ لا يا سامر . . أنت لست فى حاجة للبـــله حتى تثق بمـــا أقول .

ـ لا بأس . لتكن خرســـاء . ولكننى أحبهـــا . . وسأحبها بالرغم من كل شىء ، ورغماً عنك . ألك أن تتركينى فى هدوء ؟ ألا يكفيك أننى أمقتك ولا أتصـــور رؤيتك أمامى لحظة ؟ ! إننى أكرهـــك ولا أرى فيك غير امرأة لا

تستحق أن تحترم .. ممقوتة .. كرة يتلقفهـــا الكل .. لقد طالت المهزلة يا سيدتى .. لقد أصبحت باردة مملة .. إبتعدى عنا فالعالم لا ينقصه أغبياء تستولين على عقولهم الضعيفة ..

قمت متجهاً إلى ليـــلى وسألتها وقد بدأت العبرات تتساقط من عينيّ ..

ـ ليلى .. لمَ أخفيت عنى ذلك ؟ .

فاقتربت منى وقالت .

ـ ماذا أخفيت عنك يا سامر ؟ تكلم .

ـ نائـــلة .. أيمكن أن تكون خرساء ؟ أيمكن أن يكون ذلك ؟

فأطرقت برأسها وقالت .

ـ إنى أحبها يا سامر كما أحب أختاً صغيرة أراها جميلة بل فاتنة لا تنقصها غير الكلمات . وطالما كنت أكذب

نفسى وأتناسى ما بنـــائلة حتى أراها كامـــلة أمامى ولو أننى كنت أخدع نفسى قبل أن أُكـَذب الواقع . . الواقع القاسى ، فهى كذلك . . خرساء . .

— ولكن لمَ كتمت عنى ذلك ؟

— كنت ستصدم . . ولم أكن أجد فى نفسى الشجاعـــة لأخبرك بعيب لم أكن أوده لنائلة . . أو أود سماعه على الأقل . . وكثيراً ما حاولت أن أبعد تفكيرك عنها .

— ولكننى ما زلت أحبها . .

— ربما أنت واهم . .

— ولمَ ؟ من يدريك ؟ ربما كان ذلك الخرس نعمـــة أنزلها الله بها . . ربما كان قد قُدر للسانها أن يصبح كمئات من الألسنة التى تمسح عن الوجوه ما وهبها الله من جمـــال رُب لفظ قبحه أو كلمة شوهته . . من أدراك أن تكون تلك

الخرساء عاجزة عن أن تعبر عمـــا تريد بنظرات ملؤها الصدق ؟

ومضت ليلة طويلة طغى فيها تفكيرى القاتم على تلهفى للعودة إلى بيتنا . . حاولت عبثاً أن أتجاهل الخيبة المفاجئة لآمالى وأحلامى . . ورأيت أمام عينىّ صروحاً تتهدم وقصوراً تتداعى أقمتها فى حلم جميل ، نعمت بها متجاهـــلاً الواقع وقد أبطن لى حسرة أليمة .

* * *

لا أقول إن رجاء قد كسبت ما خسرته نائلة . . فما زلت أراها كما كانت لى من قبل .

تواردت الخواطر فى رأسى وقت أن كان الجميـــع نياماً . . ظننت أننى المخلوق الوحيـــد الذى ذهب عنه النوم وتركه لهواجس قاتلة لم تجد غيره فريسة لهـــا . . أذاك

الوجه الجميل صورة صامتة لا تنطق كما تنطق الأخريات ؟ !

مضت الليلة وقد خلتها دهراً وأنا بين مداعبة النوم لعينى لحظات والأرق الممل طوال الليل .. أغفو وقتاً فأرى وجه نائلة الباسم وصوتها العذب .. أسمع منها الكلمات وقد انسابت فى لحن جميل ، وأفيق من ذلك الحلم فجأة لأرى الواقع والشفتين الصامتتين .

مرت بى لحظات كنت أبدو أثناءها وكأننى لا أكترث بما علمته عن نائلة .. ماذا يجدينى أن أسمع صوتها أو لا أسمع ما دمت أحبها وما دام حبى لها يصل إلى الأعماق ؟ ! ولكن هل كان يمكننى أن أحبها لو كنت أعلم بما بها قبل أن أراها ؟

لماذا أتردد وأقلب الأمر على أوضاع عدة ؟ .. هل يساورنى الشك الآن فى علاقتى بها ؟ !

ولكن هل ترضى هى بى لو صارحتهـــا بحبى ؟ إننى لغبى حقاً . . كيف تسنى لى أن أفكر فى مثـــل هذا السؤال ! ؟ طبعاً سترحب بى . ستقبلنى كما ستقبل أول من يتقدم إليها ويرتضيها . . ولعلها فى انتظار ذلك الشخص الآن . .

ولكن أيعقل أن يكون ذلك الشخص المنتظـــر قد وُجد بعد ؟ ! وهل من السهل لها أن تعثر على من يرتضى شريكة لحياته فقدت ما وهب الله غيرها من نعمة ـ أولئك اللاتى قد لا يزدن عنها جمالاً أو فتنة ـ فيراها دونهن كمالاً ؟

لا أحاول أن أدعى لنفسى ذلك النبل الذى كنت أرجوه وأتمناه ولا يمكننى الآن أن أخدع نفسى فأنكر تلك الموجة من الأسف وقد هاجمتنى . . ولعلهـــا كانت المرة الأولى فى حيـــاتى أقلب الأمر فى تعقل واتزان ، وأرمى ببصرى بعيداً أفكر فى النتائج قبل أن أقدم على فعل شىء .

° ° °

مضت أيام على وصولنا إلى مصر رحت بعـــدها أتودد إلى رجاء حتى قبلت أن تخرج معى لتنـــاول العشاء فى مطعم أحد الفنادق .

كانت دائمة التفكير ، يبدو عليها شىء من القلق ، حتى خيل الىّ أن خروجها معى قد جاء رغماً عن إرادتها ، ولكننى كنت أشعر برغبة ملحة فى أن أفاتحها فى الزواج . .

كنت على اعتقـــاد يعززه الأمل فى ترحيبهـــا لطلبى ولكننى سرعان ما ابتليت بصدمة انهار معها أملى ؛ فقد ألقت علىّ نظرة ساهمة وقالت .

ـــ أجدى لك يا سامر أن لا تفكر فى مثل هذا الموضوع .

ـــ أترفضين إذن ؟

ـــ نعم . أنا آسفة ، ولكننى لا أملك غير الرفض .

كانت دهشتى كبيرة فلم أكن أتوقع أن يكون نصيبى

الفشل . . لم أطل الوقت معها فخرجنا تاركين المكان بعد انتهاء العشاء . . وفى الطريق إلى منزلهـــا قالت لى بينما كنت أقود العربة .

ـــ سامر . . أكنت جاداً فيما عرضت علىّ ؟

ـــ لا أرى بى حاجة لأن أمزح .

ـــ هل فكرت ملياً ؟

سكت عن الجواب . لم أكن فى الواقع قد فكرت ملياً فى طلب يدها هى . . بل لقد طـــرأت علىّ تلك الفكرة لساعتها ، بعد أن طال بى التفكير فى نائلة . . إنتبهت فجأة إلى صوت رجاء وهى تقول .

ـــ ألا ترى أنك لا تود أن تكذب علىّ ؟ !

ـــ لم يخطر ببالى أن أكذب . . ولكننى أريدك . .

ـــ كنت أود . . ولكن .

لم تتم جملتها ، بل سكتت فالتفت اليها وقلت متسائلاً .

ـ ولكن ؟

ـ أرجوك . . لنترك هذا الموضوع . . لنتكلم عن شيء آخر . . ما رأيك فى أن نقضى سهرة الغد فى سينما (. .) ؟

ـ وفى انتظار مساء الغد ستفكرين فيما طلبت إليك . .

ـ آسفة يا سامر . . لقد أعطيتك كلمتي الأخيرة .

ـ إذن فلمَ نتقابل ؟ وما جدوى لقائنا ؟

ـ هل تكون قد غضبت منى ؟ سامر . . أرجـــوك . . لنترك هذا الحديث . . أؤكد لك أن مثل هذا الكلام يؤلمنى .

ـ أنت تخفين عنى شيئاً .

ـ لا . أنت مخطىء . . عدنى أن نتقابل غداً .

لم يكن هناك بد من أن أعدها بذلك .

* * *

دق التليفون ينادينى فى صباح اليوم التـــالي ، وكان المتكلم الدكتور رمزى . طلب إلىّ أن ألقاه فى الخارج . . وما هى إلا برهة حتى كنت معه . .

كان فى حالة من الاضطراب وقد عهدت فيه الهدوء وضبط النفس . مرت فترة سكون فشعرت أنه لا يكاد يدرى كيف يبدأ الحديث ؛ وأخيراً قال فى صوت خافت .

— يؤسفنى يا سامر أن أخبرك بأمر لم أكن أوده . . ولكن أرجـــو أن أجد فى عقليتك الواسعـــة ما يشجعنى على الكلام . .

صمت لحظة ووجدتنى أنتظر ذلك الأمر الهام حتى قال .

— لم أعد الشخص اللائق ليكون زوجاً لليـــلى . . أراك صامتاً . . قد تجدنى نذلاً . . ولكننى مضطر للزواج من رجاء . أعلم أننى قد أسأت لكليكما — أنت وليلى — ولكنني

كما قلت مضطر لذلك . .

سهمت نظراتى وأنا أكرر كلمته .

ـ مضطر .

ـ نعم . . وأرجو أن تكون قد فهمت ما أرمى اليه .

فالتفت إليه متسائلاً وقلت .

ـ لم أفهم بعد . .

ـ أنت تعلم بتلك الصلة التى كانت تربطنى برجاء . لا أقول لك إنها وحدها الباعث على رغبتى فى الزواج منها . . هناك أيضاً من سيربطنى بها . . ولأجله فقط أرانى مضطراً للزواج منها كما يجب أن يفعل كل رجل له كرامة وشهامة . .

ـ هل أخبرت ليلى بذلك ؟

ـ لا . . لم أجسر . . ولو أننى كنت أجهل ما خبأه

لى القدر . . لقـــد أحاطتنى رجاء علماً بهـــذا الخبر منذ وقت قصير .

دارت الدنيا أمامى وشعـــرت بنفسى وأنا لا أستطيع أن أرى شيئاً أمام ناظرى . أحسست بما يدفعنى إلى التهالك على الأرض ولكننى تمالكت نفسى وقلت .

ـــ لقد رفضتنى رجاء بالأمس .

ـــ أعلم أنك تريدها . . كما أعـــلم أننى أنا الذى أجرمت نحوك . . ولكن ليس هذا مجال لوم أو عتاب .

لم أقل شيئاً فقد انقضت برهة مرت علىّ وأنا أفكر وفجأة انفرجت أســـارير وجهى والتفت إلى الدكتور مبتسما وأنا أقول .

ـــ أراك يا دكتور ترى الأشياء من وراء منظار أسود . ما رأيك فى أننى ما زلت أريد رجاء ؟ !

ـ أنت ! ! ؟

ـ نعم . . أنا .

ـ تريدها بالرغم من كل شيء ؟ !

فرددت فى هدوء .

ـ بالرغم من كل شيء . . فأنا أحبها .

إبتسم رمزى وشعرت بأن عينيـــه قد شع منهما بريق خاطف ولكنه سرعان ما تغير فجأة وقال .

ـ أخشى أن يكون قبولك رجاء تضحية منك .

ـ ثق بى يا دكتور ، فأنا أُقدر ما أقول وما أريد أن أفعل . . إننى سعيـــد ، فالمشكلة قد حُلت ، ويا ليت رجاء قد أفضت إلىّ بكل شيء . . لكنت قد قبلتها فى التو .

أمضيت نهار ذلك اليوم هانئاً ناعم البـال . . أنتظر المساء ولقاء رجاء . . .

الفصل السادس

« . . كنت أرتدى ثوب حريرى أبيض واسع ، وأنتعل بخفين من الجلد المذهب . كان الشفق قد مهد للشمس سبيل ظهورها وابعث النسيم عليلا يداعب ثوبى الفضفاض . . »

فى الساعات التى انتظرت فيها رجاء كنت أشعر أنى أكاد أهتف لكل من ألقى أن رجاء قد أصبحت لى . .

رأيت ليلى فعانقتها وقد وجدتنى أضحك عالياً ، فاعترتها الدهشة وسألتنى عن السبب فقلت لها .

ـ ما رأيك فى رجاء يا ليـــلى ؟ وماذا ترين فى أن تصبح زوجاً لأخيك ؟ .

ـ أهنئك . . ما دمت تريدها .

ـ وأنت ؟ ! ألا يسرك أن تصبح كذلك ؟

صمتت ورأيت عينيها وقد اغرورقتا بالعبرات فقلت .

ـ ليلى . . لعلى أزعجتك ؟

ـ لا . . أبداً .

ـ ولكن علام البكاء ؟

ـ إننى فرحة . . جداً .

ـ لست أرى ذلك . .

أجل ، فإنى لم أكن أعتقد أن إعلانى الزواج من رجاء قد سر ليـــلى ، فأجلستها وبعد برهة قالت .

ـ لقـــد طلبت إلىّ رجاء ألا أفكر فى رمزى . . ولا

أعلم الداعى .

ـ هل طلبت إليك ذلك ؟ !

ـ نعم . بل لقد تحدتنى . . وإننى أخافها فى الواقع ، فربما تسبب لى تعباً يوماً .

قلت لها وقد تظاهرت بالدهشة .

ـ أتحدتك أيضاً ؟ !

ـ نعم . . وأرجوك يا سامر أن تساعدنى .

ـ بلهاء . . لقد كانت تمزح معك .

ـ ولمَ مثل هذا المزاح ! لقد كانت جادة فيما قالت .

ـ أراهنك أنها كانت دعابة متقنة .

ـ كم أود لو كانت كذلك !

ـ بل هى كذلك . تعالي معنا الليـــلة إلى سينما (. .) وستسمعين بأذنك صدق ما أقول .

ـ إننى على موعد مع صديقة . . وربما اعتذرت فاستطيع أن أذهب معك .

* * *

أتت صديقة ليلى لزيارتها .

. . كانت الشمس قد اختفت عند ما نزلت رجاء من منزلها وأخذت مكانها بجـــانبي فى العربة . حاولت أن أنهى إليها الخبر العظيم الذى كان يملؤنى حينـــذاك . . ولكننى قلت لها وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيّ

ـ ألا تريني أبتسم يا رجاء؟

أجابت وقد ابتسمت هى الأخرى .

ـ حقاً . . ولكن ما السبب ؟

ـ إذن فاستعدى للمفاجأة الـــكبرى .

ـ أسارة هى تلك المفاجأة ؟

ـ ولمَ أبتسم إذن ؟

ـ أخبرنى . . ما هى . . لقد أغريتنى كثيراً . .

شعرت بقلبى يخفق وأنا مقدم على الكلام ، وسرت فى جسمى رعشة قوية . . وما هى إلا لحظات حتى سمعت دوياً هائلاً . . استيقظت من نومى على سرير فى المستشفى وقد أحاط بى الكثيرون . لم أتبين منهم إلا ليلى وعزت بك . سألت عن رجاء فأخبرونى أنها فى الحجرة المجاورة ، وما زالت هى الأخرى فى غيبوبة طويلة .

كان ذراعى قد غُطى باللفائف ، وقد علت وجهى بعض الجروح التى ضُمدت قبل أن أستفيق إلى نفسى ، ولم يكن لى من شاغل فى تلك اللحظة إلا أن أرى رجاء وأعرف ما ألمّ بها .

جاءنى رمزى وأفضى إلىّ فى همس .

ـ أهنئـــك يا سامر . كان لا بد من حادث يقع لنُحل المشكل . .

فنظرت إليه متسائلا فى دهشة فقال .

ـ رجاء لك . . وحدها منذ الآن . .

ـ لى ؟ !

ـ أجل . . إن حالتها عادية بالنسبة لما حدث لها ، ولكنها تمر بحـــالة نفسية قد تتعبها بعض الشىء ، وربما أنت وحدك تستطيع أن تحسن من حالتها .

ـ هل أخبرتك بشىء ؟

ـ وأى شىء يا صديقى ! إنها تسأل عن موعد إعلان خطبتى بليلى .

* * *

مرت أيام قبـــل أن يُسمح لى برؤية رجاء . . دخلت

حجرتها وجلست على فراشها وهى متمددة عليه وقد بدا وجهها وادعاً .. ناصع البياض .. وارتسمت ابتسامة نقية على فمها الجميل . تركنا الجميع وحدنا فقالت لى .

ـ حقاً لقد كانت مفاجأة .. سارة على ما أعتقد يا سامر .

ـ أنا آسف يا رجاء .

ـ آسف ؟ ! على الرغم مما أخبرك به رمزى ؟ أوه يا صديقى .. لو لم أكن طريحة الفراش لاحتفلت بهذا الحادث .

ـ ولكننى لم أقصد بمفاجأتى تلك المصادمة قط .. هناك مفاجأة أخرى .

ـ أنت تحاول إغرائى من جديد .. أخشى أن يقع بى السرير هو الآخر هذه المرة !

ـ ليقع . . ولكن بعد أن أعرف ردك .

ـ ردى ؟ ولكنك لم تسألنى أو تطلب الىّ شيئاً بعد !

ـ أطلب يدك يا رجاء . .

نظرت إلىّ مبتسمة وهى تمد يدها إلىّ فى غبطة ، ولم أشعر بنفسى حينذاك وقد عشت معها فى قبلة طويلة أفقت منها لما ترامى إلى سمعى وقع أقدام آتية .

° ° °

إنها ظاهرة عجيبة لا أستطيع أن أجد لها تعليلاً . . طالما كنت أشعر بحاجتى إلى النوم فى تلك الأوقات التى أحس فيها بالسعادة وقد فتحت أبوابها فى طريقى . . ولعلنى كنت أخشى أن يأتى إلىّ الواقع بعدئذ بما يسبب لى هماً يهدم سعادتى ويتركها أطلالاً . . كنت أخشى أن يسرح فكرى طويلاً فأصور الامور كما أشتهي

فتتضخم الآمال أمامى وتنقلب سراباً بعد حين . .

° ° °

تركت المستشفى بعد أن تم شفـــائى ، ورحت أذهب إليهـا كل يوم لأعود رجاء ولم يبـــق لهـا غير أيام لتتركها هى الأخرى .

قالت لى فى عصر ذات يوم .

ـ أتؤمن يا سامر بتحقيق حلم رأيته ؟ وهل يحدث أن يصدقه الواقع ولو لمرة ؟

ـ لو كان خيراً فكم نود لو لمسناه فى أيام تأتى . .

ـ إنه خير . . لقد تمنيت لو لم تكن اليقظة انتشلتنى من جوه الجميـــل . . ولو كانت حياتى تجمعت وغدت فى حـــلم كذلك الذى عشت فيه لحظـــات . . أنصت فسأقصه عليـــك . .

لقد وجدت نفسى أضرب فى بيـــداء واسعة ، أســـير مسافات طـــويلة لا أرى أمامى غـــير الأفق البعيد . . كنت أتدثر بثوب حريرى أبيض واسع . . وأنتعـــل بخفين من الجلد المذهب . كان الشفق قد مهـــد للشمس سبيل ظهـــورها ، وانبعث النسيم عليـــلاً يداعب ثوبى الفضفاض الذى راح يتماوج فى انتظـــام . سمعت موسيقى غريبة ما طرق أذنى لحن أبدع منهـــا وأشجى . . بدا لى عن بعد بناء ناصع البياض كأنه قد رُصع بماس وأحجار كريمة راحت تشع بريقاً يظهر ويختفى طـــوال الوقت حتى اقتربت منه فإذا بى أمام معبد رأيتك واقفـــاً على بابه وقد ارتديت مثل ملابسى فركعت خاشعة خاضعـــة . . وما هى إلا هنيهة حتى أخذت بيـــدى وساعدتنى على الوقوف . . وهنا سمعت صـــوتك يقول « هنـــا دارنا يا رجاء . . هنا

سنعيش بعيداً عن العالم الآخر ، وستكونين لى وأنا لك . . هنا سوف نحيا حياة أخرى . . حياة أحلى من تلك التى تركنا ، ولن تستطيع قوة فى الوجود أن تفرق بيننا . . فالخلود هو الذى سيجمعنا . . »

بدت كلماتها لحناً عذباً إنساب حنوناً . . وظهرت لى الحياة حلوة جميلة بدأت أحبها ورأيت فيها ذلك اللون الضاحك الزاهى الذى غمرنى بالسعادة . .

قمت إلى النافذة ألقى نظرة على الكون ، أرقب من بعيد ذلك المعبد الذى رأته رجاء . . وأشاهدها وقد بدت فى ثوب الملاك البرىء ، تضرب فى البيداء الواسعة فى طريقها إلى عشنا . . ذلك العش الذى ولجته وطفت بأبهائه وعشت فيه نهار ذلك اليوم .

إستقبلت الغد مرحاً مستبشراً ، وجمعتنى مائدة الافطار

بخالتى وليلى وعزت بك .. كان الوقت مناسباً لأزف إلى خالتى خطبتى رجاء ، فابتسمت ونظرت إلىّ طويلا ثم بدت لى وهى تفكر وقالت أخيراً .

ـ لقد كنت أنتظر ذلك يا سامر . والآن وقد صممت جدياً ، فلا أجد مانعاً .. ولكننى سأعطيك كلمتى بالقبول غداً .. فى مثل هذه اللحظة ..

ـ قد لا تودين الرفض .. الآن ؟

ـ أبداً . لست أقصد ذلك .. ولكنني أرى أن أترك لك المجال للتفكير ملياً خلال هذه الليلة .. وتأكد اننى سأحترم ما يستقر عليه رأيك .. وكلمتك ستكون كلمتى ولا أطلب اليك أكثر من التفكير الهادىء فى هذا الموضوع .

تلاعبت كلماتها فى مخيلتى ، وأخذت أحاول تفسير ما ترمى اليه حتى قالت أخيراً .

ـ عجباً .. كم فرت الأيام سراعـــاً .. وكم أذكر الآن ذاك اليوم . كنت أتناول الغداء مع والدى وشقيقتى ـ والدتك ـ لما أنهى إلىّ والدى خـــبراً شدهت له .. فقد تقدم إليه صديقه الـــكهل الثرى يطلب يدى .

إلتفتت إلىّ باسمة وسألتنى .

ـ أتدرى يا سامر ماذا كان جوابى ؟

ـ لقد قبلت طبعاً .. ما دام قد تزوج منك .

ـ ولكننى رفضت فى بادىء الأمر .. ورفضت بشدة . ما زالت كلمات والدى ترن فى سمعى الآن .. لقـــد قال لى .. « سوف أتركك الليلة لتفكرى . قد يحق لك أن ترفضى ، ولكن فكرى .. وفكرى ملياً .. »

سكتت برهة ثم استطردت تقول .

ـ لم أكن بحاجة لأن أفكر فنمت لتـــوى .. وفى

صباح اليوم التالى بدأت أقلب الأمر بشىء من التروى والأناة فمر بخاطرى أننى تمنيت يوماً بينما كنت طفلة أن أشترى «عروساً» من القماش ، وحصلت عليها ولك أن تُقدر فرحى بها وقد أمرت بأن تنام بجانبى فى فراشى .. وكان لى ما أردت . كنت أجلس أمامها أعجب بها وبجمالها ، إلى أن خطر لى يوماً أن أرى ما بداخلها فأتيت بسكين وفتحتها فكانت مفاجأة محزنة لما رأيت « القش » يتساقط منها .. من تلك الدمية التى أغرانى جمالها .

خطر لى حينئذ أنه كان يجدر بى أن أطلب شراء تلك الساعة الذهبية الصغيرة التى رأيتها يوماً بدلاً من أن أختار « العروس » الخادعة .. واشتروا لى الساعة .. وفخرت بها أياماً إلى أن فكرت فى فتحها هى الأخرى وفحص ما بداخلها قطعة قطعة ، فما لبثت أن وجدتها قد كفت

عن الحركة فندمت على اختيارى تلك الساعة التى تملكت إعجابى وقتاً .

لقد تساءلت يا سامر كيف يحدث أن يخيب أملى بمثل هذه السرعة فأكفر بما قدسته من قبل ؟! لا أدرى كيف سبق تفكيرى السليم سنى المبكرة فرحبت بزواجى من الثرى .. الثرى الكهل .. وأؤكد لك أننى وجدت فى ذلك سعادتى .. فحياة البذخ التى كنت أحياها كانت كل ما أتمنى فى دنياى .. ولقد ظلت ما كنت أنشده .. وها أنذا سعيدة الآن .

سكتت فترة ثم قالت .

— إن رجاء صديقتى وأنا أحبها .. وتأكد أننى لا أود إلا الخير لك .. ولها ، وما دمت تجد سعادتك فى أن تصبح رجاء زوجاً لك فإننى لا أريد أن يكون هناك

تردداً أو تسرعاً فى رغبتك هـــذه قد يكون سبباً فى شقائهـا يوماً . أتعدنى إذن أن تفكر فى ذلك ؟

وعدتها .. وبينما كنا نترك المائدة دق التليفون ينبئنا بشدة وطـــأة المرض برجاء فمضينا إليهـــا ، وكم حال جبنى دونى ودخول حجرتهـا . وقفت أرقب الداخلين والخارجين من لدنها وقد استولى عليهم صمت حزين .

خرجت ليـــلى وفى عينيها العبرات . نظـــرت إلىّ ثم أجهشت بالبكاء ، فأحسست بأوصالى ترتعش ، وانعقد لسانى عن الكلام وسرت الحرارة فى شفتىّ .

أتى رمزى إلىّ وقد شحب وجهه ، فنظرت إليـــه طويلا وأنا أحاول أن أقرأ فى عينيه الخبر الذى كنت أنتظر ثم سألته فى صوت متهدج .

ـ أهناك أمل يُرجى ؟

لم يجب بل أطرق برأسه قليلا ثم قال .

ـ لا أشجعك على التفاؤل يا سامر .. قد تنتهى رجاء من لحظة لأخرى .

ترنحت فى وقفتى وقد جمدت الدموع فى عينىّ فرحت أردد فى صوت قد حبسته العبرات .

ـ لقد قتلتها ..

رد رمزى مهدئا .

ـ لا يا سامر . أنت لم تقتلها . إن للقدر دخلاً كبيراً فقد كان الحادث قضاء محتوماً . الخطأ لم يكن فى جانبك فلا تدع لمثل ذلك الظن السخيف مكاناً فى تفكيرك .. أنت لم تقتلها .

أخذ بذراعى فاطعته فى سكون ، وقادنى إلى حيث كان سريرها . لم أشعر إلا والنظرات قد اتجهت نحوى ..

والآهات تتجاوب بين الحاضرات وقد احتطن بالفراش .
لم أجـــد فى نفسى القوى لألقى نظرة على رجاء .. ولم أدر لمَ احتبست الدموع فى عينيّ حينذاك .

كان لا بد من أن أراها .. وقد رأيتها ..

إننى ما زلت أذكر الآن وجهها وقد بدا فاتناً رائعا .. وذلك الهدوء وقد شملها فى لحظة إستولى فيها الجـــلال على جو المكان . لم أستطع أن أنظر إليهـا طـــويلاً فأدرت رأسى وراحت الدموع تنهمـــر ولا أدرى الآن كيف استطعت أن أرى أمامى البيداء الواسعـــة وذلك المعبـــد الأبيض .. ورجاء فى طريقها إليه .

إن تلك اللحظـــات القاسية القاتمـــة لتدفع الإنسان إلى دنيا أخرى يرى فيها مالا يظهره الواقع الملموس . تبـــدو السعادة فى هذه الأوقات عزيزة غاليـــة .. وقد تتمثل تلك

السعادة فى حياة عادية يحياها من لا يمر بنكبة كتلك التى كنت أجتازها وقتذاك ..

إلتفت إلى رجاء فالفيتها ترنو إلىّ بنظـــرة وقد انبلجت إبتسامة شاحبة على ثغرها قُدِّر لهـــا أن تكون بسمتهـــا الأخـــيرة .

لقد راحت رجاء بعـــد لحظات إلى غير لقاء ..

إرتميت على جثمانها .. ولا أذكر الآن ما ألمّ بى حينذاك فلم أكن أحس أو أشعر بما كان يدور حولى ..

* * *

والآن ، وقد أســـدل الزمان ستاراً قاتمـــاً على تلك الفترة من حيـاتى . كثيراً ما أرجع بخيـــالي إلى الأيام الغابرة وقد غدت ذكرى للماضى الجميـــل . . طالمـــا وددت لو عدت إلى ذاك الوقت .. طفلاً صغيراً يحيـا فى الأوهام .

للمـــؤلف

١ — وهيده : رواية قصصية مصرية فى ٢٧٦ صفحة
ظهرت فى أبريل ١٩٤٠ نفدت

٢ — نداء الصخرة : مجموعة من الأقاصيص المصرية
فى ١٤٦ صفحة ظهرت فى ٥ أبريل ١٩٤١

٣ — الماضى الجميل : قصة مصرية طـــويلة
ظهـــرت فى ٥ أبريل ١٩٤٢

عنوان المؤلف

١٥٩ طريق الملكة فريدة

چنا كليس رمل اسكندرية